(منهج المنار فى تفسير القرآن الكريم)

عرض وتقويم

الأستاذ الدكتور
محمد السيد راضي جبريل

أستاذ التفسير وعلوم القرآن
بكلية أصول الدين (القاهرة)

بسم الله الرحمن الرحيم

أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى :

١- تحديد الركائز التى ارتكز عليها منهج (المنار) فى معالجة قضايا التفسير

٢- تطبيق هذا المنهج على ما تناوله (المنار) من مسائل التفسير.

٣- إبراز ما تفرد به هذا التفسير عن غيره من التفاسير.

٤- مناقشة القضايا التى كانت محل جدل وخلاف فى هذا التفسير.

٥- تقويم هذا المنهج استنادا إلى القواعد الشرعية دون إفراط أو تفريط ومن غير تحامل أو محاباة .

مقـــدمة

الحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين ورحمه الله تعالى للعالمين سيدنا محمد النبي المصطفى والرسول المجتبي، وعلى آله وصحبه من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين...

وبعـــد:

فإن فضل القرآن الكريم، ومكانته العليا عند المسلمين أمر لا يخفي على ذي لب ، فبه قوام حياتهم، وفيه صلاح أمرهم، ومنه استقامة نهجهم، وعليه بناء قوتهم وعزهم، ولقد سجل القرآن الكريم لنفسه فيما نزل مـــن آياته أعظم الدرجات، ولمن خوطب به أكرم المنازل .

فالكرامة والهداية، والشفاء والرحمه، والهيمنة والتمـــام، والحفـظ والصدق، كل هذه أوصاف كريمة حملتها آياته المباركة، وقد جاءت آيـــة واحدة تطوي كل هذه الأوصاف فى ثنايا جلال ومهابة وعظم ما تقوم لـــه من الأرض جبالها الرواسي- على عظمها وشموخها – وذلك هو بعـــض دلالة قول الحق تبارك وتعالى: **(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَـــلٍ لَرَأَيْتَـــهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَـــالُ نَضْرِبُـــهَا لِلنَّـــاسِ لَعَلَّـــهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)**الحشر: ٢١ .

ولقد حفلت السنة النبوية المطهرة بإبراز فضـــائل هـــذا الكتـــاب الكريم، ويضيق بنا المقام إذا نحن حاولنا استعراض ما جاء منها فى هـــذا الباب، لكن حسبنا من ذلك ما يبرز أثر القرآن فى رفعة أوليائه وعزهـــم وضعة أعدائه وهوانهم.

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلـــى الله عليه وسلم" **إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين** " (١)

من أجل هذا عرف أصحاب النبي صلى الله عليه وســـلم قـــدره، فحرصوا أشد الحرص على حفظه ومدارسته والعمل به، وأصبح حجـــر الزاوية فى كيان أمة الإسلام، حتى عرفت به أقدار الرجال، وقدم أهله فى كل موقع، بل وجعل مهوراً للنساء، وكان معيار التفاضل بينهم إذا تفـاضل غيرهم بالدرهم والدينار ، أو بالجاه والحسب.

ولقد توارثت أجيال المسلمين عبر تاريخهم الممتد هـــذا الاهتمـــام بأمر القرآن، ومن ثم حظي بالنصيب الأوفي من المؤلفات والدراسات التى تهدف إلى التمكين له فى قلوب المسلمين حفظا وتلاوة، وفى عقولهم فـــهما ودراسة، وذلك منذ فجر عصر التدوين للعلوم الإسلامية فى قرون الإسلام

الأولى فتتابع التصنيف فى علم التفسير، وكثرت فيه المؤلفات، ومع الأيـام تعددت تلك التفاسير فى مناحيها واهتماماتها رغم وحدة الموضوع.

فنرى منها ما يجنح إلى التاريخ، يسوق حشداً هائلا من قصصـــه التى لا يسلم العقل الكثير منها، وليس لها ســـند صحيـــح، بـــل معظمـــها إسرائيليات تنسب حتى إلى الأنبياء ما لا يليق بعصمتهم ولا يتفـــق مـــع رسالتهم .

ومنها ما يميل إلى بحوث الكون والفلسفة العقلية، ويأخذ فى تفسير الآيات القرآنية تحت تأثير هذه البحوث ومضمامينها، ويخوض إلى تحقيق غايته من ذلك دروباً من الاعتساف والتأويل والتكلف غير المستساغ.

ومنها ما يقصد إلى الفروع لا يرى غيرها إلا تبعا لهان كمســـائل الفقه وتفصيلاتها، أو مســـائل النحـــو وتفريعاتـــها، أو قواعـــد البلاغـــة وشواهدها، أو إشارات التصوف، أو مذاهب الكلام.

على أن الخطب فى ذلك هين بالقياس إلى ما خلفه تفرق المسلمين شيعاً وأحزاباً من بلاء انعكس على تفسير علماء هذه الفرق للقرآن الكريـم ذلك التفرق الذي انقشع غباره عن تلك التفاسير المذهبية المنحرفـــة فـــى اتجاهاتها بما تضمنته من خطايا وأخطاء .

ومن ثم ظهرت الحاجة ماسة إلى تناول هذه المؤلفـــات بالدراســـة التحليلية، والنقد والمقارنة بغية الوصول إلى أمثل السبل لاستجلاء هدايـــة القرآن الكريم، والاغتراف من فيض موعظته وحكمته فيما عـــرف بعلـــم (مناهج المفسرين).

ومن المدارس التى ظهرت حديثاً فى تفسير القرآن الكريم مدرسة الأســـتاذ الإمام الشيخ: محمد عبده، تلك المدرسة الأدبية الاجتماعية التى سلكت فـــى التفسير مسلكا أعلنت به أن يبرز الهدى القرآني، ويقدمه لطالبه بـــأوضح عبارة، ومن أيسر طريق بعيداً عما حشا به المفسرون تفاسيرهم من أمـــور كانت من صوارف الهمم عنها وعن الاغتراف منها.

وكان (تفسير القرآن الحكيم) الذى عرف بين الناس واشتهر بـــ (تفسير المنار) أبرز آثار هذه المدرسة وأوضحها، ولما كان هدف البحـــث هو إبراز منهج هذا التفسير فى عرض هدى القرآن، فإن الكلام فيه يغنينـــا عن الكلام الآن فى منهج هذه المدرسة فى التفسير.

وإذا كان تفسير المنار- كما سيتضح بعد – ثمـــرة مـــن غـــرس الأستاذ الإمام محمد عبده، فإن الذي تعهد هذا الغرس تحملاً وأداء حتـــى آتى تلك الثمرة هو الشيخ محمد رشيد رضا، وعليه فإن المقام هنا يقتضـــي

تعريفاً – ولو موجزاً – بكل من الشيخين ثم عرضا للقائهما، ولتلميذة الشيخ رشيد رضا على الأستاذ الإمام، التى يتضح من خلالها قصة تأليف (تفسير المنار) واصل هذا التفسير وتدوينه، وبعدها عرض لمنهج ذلك التفسير، وتقويم لذلك المنهج استناداً إلى الثوابت الشرعية ، ووزناً بميزانها دون إفراط أو تفريط، ومن غير تحامل أو محاباة.

وتلك هى مهمة البحث وغايته، وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

الأستاذ الإمام (محمد عبده)
(١٨٤٩ – ١٩٠٥م)

اسمه ونسبه ومولده:

هو محمد بن عبده بن حسن خير الله.

نشا أبوه : عبده بن حسن خير الله فى " محلة نصر" إحدى قرى مركز شبراخيت بإقليم البحيرة فى أسرة تعتبر إحدى أكبر ثلاث أسر فى تلك القرية، هى : بيت خير الله التركماني، وبيت الشيخ، وبيت الفرنوانى، ومن بين هذه الأسر كانت أسرة التركماني – التى منها أجداد محمد عبده – أقواها شكيمة، وأصعبها مقادا على أصحاب الإقطاع الذى انتشر فى القطر المصري فى هذا الوقت، فطارد هؤلا تلك الأسرة، ولم يكفوا عن ملاحقتها والتضييق عليها حتى هاجر الكثير من أفرادها، ومنها أبو الإمام: عبده بن حسن الذى هجر القرين ونزل إلى جوار تفتيش من أملاك الخديوى إسماعيل بمركز السنطة، حيث يوجد أخواله فى قرية عرفت بـ (كنيسة أورين) ومنهم الحاج محمد خضر عمدة القرية وفى هذه الفترة تزوج من السيدة جنينة أم الإمام، وكان مولد (محمد عبده) فى هذه الفترة فترات الاستقرار فى حياة الأب فى قرية" حصة شبشير" من قرى إقليم الغربية: ١٢٦٦هـ – ١٨٤٩م (٢).

نشأته :

إذا كنا قد أشرنا إلى أن أسرة محمد عبده كانت تعتبر من كبرى الأسر فى القرية فإننا لا نعني بذلك كثرة مال أو وفرة عدد، بل المراد أنها كانت أهل مروءة ونجدة وكرامة، ذلك أن الأنساب والأموال لا ترتفع بأقدار أصحاب إذا قعدت بهم الأعمال، وفى الحديث : (**من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه**) (٣).

وإذا كان الإمام قد ولد فى حصة شبشير – كما سق – فإن والده قد عاد إلى موطنه فى محل نصر وبها نشأ الإمام، وكانت أسرته تشتغل بالزراعة التى يساعد أباه فيها جميع إخوته كما الحال فى الريف، لكن والده قد اختار له طريقا آخر هو طريق العلم الذى بدأه بحفظ القرآن الكريم. (٤)

طلبه للعلم ، وأساتذته :

حفظ الإمام القرآن فى سن مبكرة، وذهب إلى الجامع الأحمدى فى طنطا سنه ١٢٧٩هـ، ليتعلم التجويد الذى نجح فى إتقانه فى مدة سنتين

وفى سنة ١٢٨١هـ- ١٨٦٤وعندما بلغ الخامسة عشره من عمره جلس لتلقي العلم فى المسجد الأحمدي، ولم يتواءم مع طريقة الطلب فى ذلك العهد، إذ كان يراها تعتمد على الحفظ وحشو الذهن بالمعلومات أكثر من الفهم والتدبر، فترك الجامع الأحمدى، وعاد إلى (محلة نصر) عازما على العمل بالزراعة، شأنه شأن إخوته، وتزوج سنه ١٢٨٢هـ- ١٨٦٥م بنية الثبات على هذا الطريق.

لكن قدر الله تعالى كان قد سبق بما يعلمه سبحانه من سلوك الإمام طريق العلم، ذلك أن والده لم يرتض منه ما نواه من العمل بالزراعة فحاول إكراهه على العودة إلى طنطا فهرب إلى "كنيسة أورين" وهناك التقي بأحد أخوال أبيه، وهو الشيخ درويش خضر الذى كان يجيد حفظ القرآن وفهمه، ويحفظ بعض كتب الحديث، ويجمع إلى ذلك اهتمامه بالتربية فى شئ من التصوف وتهذيب الأخلاق، فحبب الرجل إليه العلم وكان سبباً فى تحويله إليه مرة أخرى راغبا غير مكره، فعاد إلى طنطا لكنه لم يستقر بها طويلاً، بل قصد إلى الجامع الأزهر فى مصر.

وإذا كان أستاذه الأول فى السلوك هو درويش خضر قبل رحيله إلى الأزهر، فإنه تتلمذ فى الأدب هناك على الشيخ محمد البسيونى، وفى الفلسفة على الشيخ حسن الطويل، أما أستاذه في الدعوة الذي استمر تأثيره فيه بعد ذلك فكان السيد جمال الدين الأفغاني [٥].

تعرف الشيخ الإمام محمد عبده بالسيد جمال الدين الأفغاني:

لم يكن جمال الدين الأفغاني – الذي ولد فى قرية (سعد اباد) من أعمال كابل ببلاد الأفغان: ١٢٥٤ هـ – ١٨٣٨م عالما عاديا من علماء المسلمين، بل كان رحالة جمع إلى المألوف من الثقافة الإسلامية فى ذلك الوقت والكتب وكذلك الرحلات تجارب ذاتيه كونها من رحلاته، واحتكاكه بالشعوب الإسلامية التى رحل إلى بلادها .

ولذلك ما إن قدم إلى مصر للمرة الثانية سنه ١٢٨٨ هـ- ١٨٧١م. حتى اتصل به الشيخ محمد عبده، فحضر دروسه، ولزم مجالسه التى كان يعقدها للعلم.

وقد تأثر الإمام بالسيد جمال الدين تأثراً كبيراً برز فى اهتمام الأول بكثير من العلوم التى وجهه الثانى إليها والتى لم تكن تدرس فى الأزهر آنذاك كالفلسفة والرياضيات والسياسة وغيرها، وقد طالت صحبة

الرجلين وأثمرت إصدار جريدة (العروة الوثقى) التى أصدراها فى باريس سنه ١٨٨٣م فى فترة نفي كليهما [٦].

جهود الإمام محمد عبده فى التفسير :

كأن تفسير القرآن الكريم من بين الميادين التى برز فيها جهد الإمام محمد عبده ولعل تفسير " جزء عم " من أبرز ما ألفه فى هذا المجال، وقد ألفه بمشورة من بعض أعضاء الجمعية الخيرية الإسلامية ليرجع إليه أساتذة مدارس الجمعية فى تعليم الطلاب معانى ما يحفظون من هذا الجزء، وقد أتم الإمام تفسيره سنه ١٣٢١هـ.

كما أن للإمام تفسيرا مطولا لسورة العصر، وهو فى أصله محاضرات ألقاها على علماء مدينة الجزائر سنة ١٣٢١هـ - ١٩٠٢م [٧]، ونراه يحدد مدة تفسيره ذلك فيقول:

(قرأت تفسير سورة العصر فى سبعة أيام، وكل درس لا يقل عن ساعتين، أو ساعة نصف)[٨] .

وللإمام كذلك بحوث فى التفسير تناولها من زوايا معينة، وقصد بها دفع ما قد يتوهمه البعض فى القرآن الكريم من إشكالات تعرف عند العلماء بـ (موهم الاختلاف والتناقض) كشرح قول الله تعالى: **(ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا)** (النساء:٧٩) وتوفيقه بين ما يظن فيها من تناف وتضاد، وكذلك تفسيره الآيات ٥٢-٥٥ من سورة الحج: **(وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان .....)** الآيات ودفعه لقصة الغرانيق وإبطاله لتفسيرها بما يتنافي مع عصمة النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك تفسيره للآية ٣٧ من سورة الأحزاب: **(وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا)** وبيانه وجه الحق فى زواج النبي صلى الله عليه وسلم من أم المؤمنين زينب بنت جحش [٩]

أما جهد الأكبر فى التفسير فهو مادة تفسير المنار، وهو ما سنعرض له بعد الترجمة لتلميذه السيد رشيد رضا رحمه الله تعالى.

السيد محمد رشيد رضا
(١٢٨٢- ١٣٥٤هـ) (١٨٥٦- ١٩٣٦م)

اسمه ونسبه ومولده:

هو محمد رشيد بن على بن رضا بن محمد شمس الدين، ينتهي نسبه فى بعض أصوله إلى الحسين بن على رضى الله عنه وقد أورثه ذلك اعتزاز بهذا النسب فى نفسه، وتفانيا فى الذود عن عقيدته.

ولد رحمه الله تعالى فى أواخر شهر جمادى الأولي سنة ١٢٨٢هـ مما يوافق الثامن عشر من شهر أكتوبر سن ١٨٦٥م فى قرية (قلمون) وهى إحدى قرى لبنان على شاطئ البحر الأبيض المتوسط جنوب طرابلس الشام[١٠].

نشأته وطلبه للعلم :

حفظ محمد رشيد القرآن الكريم فى سن مبكرة، ثم التحق بالمدرسة الوطنية الإسلامية بطرابلس الشام، فوجد فى أساتذتها من العلم وحسن الفهم ما وقفه على معرفة طبيعة عصره، وهضمه تعاليم دينه، وتمييز الخبيث من الطيب، والغث من السمين من أقوال المؤلفين، ونصوص الفقهاء، وكان من أبرز من تأثر به من بين هؤلاء هو الشيخ حسين الجسر الأزهر، الذي لم تتقطع صلته به حتى بعد إغلاق تلك المدرسة، ثم التحق بالمدرسة الدينية حتى نال الشهادة العالمية.

وفى شبابه الغض تطلع الفتي إلى ما يروى ظمأه إلى المعرفة وكان كثير التأمل، وقد حبب إليه هذا التأمل والبحث عن المثل العليا قراءة كتاب (إحياء علوم الدين) لأبى حامد الغزالي ، فوجد فيه أسلوبا جديدا فى التربية، ولمس من تحقيقه العلمي وسبره أغوار النفس ما فتح على روحه منافذ من الإحساس، وعلى عقله روافد من التفكير المستقل الوثاب[١١].

ولقد بلغ من تأثير (الإحياء) على الشيخ رشيد رحمه الله تعالى- إبان طلبه للعلم بطرابلس وبعدها – أن نزع به نحو التصوف، وأوشك أن يميل به إلى الانزواء، حتى وقع فى يده بعض أعداد صحيفة (العروق الوثقى) فوجد فيها ما أثر فيه تأثيرا شديدا، وحول وجهته إلى المسلك الذي سلكه من بعد، والذي يحدث عنه بنفسه فيقول:

(كنت من قبل اشتغالي بطلب العلم فى طرابلس الشام مشتغلا بالعبادة، ميالاً إلى التصوف، وكنت أنوى بقراءة القرآن الاتعاظ بمواعظه لأجل الرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا، ولما رأيت نفسي أهلا لنفع الناس بما حصلت من العلم- على قلته- صرت أجلس إلى العوام فى بلدنا أعظمهم بالقرآن، مغلبا الترهيب على الترغيب ، والخوف على الرجاء والإنذار على التبشير، والزهد فى الدنيا على القصد والاعتدال فيها.

(فى أثناء هذه الحالة الغالبة على ظفرت يدى بنسخ من جريدة (العروة الوثقي) فى أوراق والدي، فلما قرأت مقالاتها فى الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، وإعادة مجد الإسلام وسلطانه وعزته، واسترداد ما ذهب من ممالكه، وتحرير ما استعبد الأجانب من شعوبه أثرت فى قلبي تأثيرا دخلت به فى طور جديد من حياتى، وأعجبت جد الإعجاب بمنهج تلك المقالات فى الاستشهاد والاستدلال على قضاياها بآيات من الكتاب العزيز، وما تضمنه تفسيرها مما لم يحوم حوله أحد من المفسرين على اختلاف أساليبهم فى الكتابة، ومداركهم فى الفهم) [١٢].

لقاؤه بالشيخ محمد عبده وتلميذته عليه :

رأى الشيخ رشيد رضا فى مجلة " العروة الوثقي " منهجا للإصلاح والنهوض بالعلم الإسلامى، يقوم على أن المسلمين أخوه، وينبغي أن تعلو رابطه الدين فوق كل شئ، فلا يجوز وقد جمعتهم رابطة أخوة هذا الدين أن يفرقهم وطن أو لغة أو جنس، كما ينبغي للمسلم أن يوقن بأن دين الإسلام دين العزة والقوة والسيادة، وفى نفس الوقت دين الرحمه والعدل والنصفة،وأن هذا الدين ينبغي أن يسود العالم، وينبني على ذلك أن لله تعالى سننا فى الخلق، ونظام الإجتماع البشرى، وأسباباً لترقي الأمم وتدليها، وقوتها وضعفها.

وكان الشيخ قبل ذلك يكتب مقالات فى صحيفة شامية، راس تحريرها فى نفس الوقت، وكانت تسمى (ثمرات الفنون) ولكنه راى الرقابة العثمانية تحرم عليه أن يحذو حذو " العروة الوثقي" فيما يقول فعزم

على الالتحاق بركب الإصلاح الذي راي ف طليعته السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده [١٣].

ويحدث هو بنفسه عن ذلك، فيقول عن مقالات " العروة الوثقي":

(تلك المقالات التى حببت إلى حكيمي الشرق، ومجددى الإسلام ومصلحي العصر: السيد جمال الدين الحسيني الأفغانى، والشيخ محمد عبده المصري، وهما اللذان أنشأ جريدة العروة الوثقي " فى باريس سنه ١٣٠١هـ عقب احتلال انجليز لمصر فى أواخر سنه ١٢٩٩هـ وكان الكاتب لتلك المقالات العالية فيها هو الثانى، ولكن بإرشاد الأول وإدارته وسياسته، وهو أستاذه فى هذا المنهج ومربيه عليه.

(توجهت نفسي بتأثير "العروة الوثقي" إلى الهجرة إلى السيد جمال الدين والتلقي عنه، وكان قد جاء إلى الآستانة، فكتبت إليه بترجمتى ورغبتي فى صحبته وأنه لا يصدني عنه إلا إقامته فى الآستانة، لا عتقادي أنه لا ستطيع طول المقام فيها، وعللت ذلك بقولي: " لأن بلاد الشرق أمست كالمريض الأحمق يأبى الدواء ويعافه لأنه دواء".

(وبعد أن توفاه الله تعالى إليه فيها تعلق أملي بالاتصال بخليفته الشيخ محمد عبده،للوقوف على اختباره وآرائه فى الإصلاح الإسلامي ومازالت أتربص الفرص لذلك حتى سنحت لى فى رجب سنه ١٣١٥هـ وكان ذلك عقب إتمام تحصيلي للعلم فى طرابلس، وأخذ شهادة العالمية أو التدريس من شيوخى فيها، فهاجرت إلى مصر وأنشأت المنار للدعوة إلى الإصلاح.

(اتصلت بالشيخ فى الضحوة الصغرى لليوم الذي وصلت فى ليله إلى القاهرة، فكان اتصالي به من أول يوم كاتصال اللازم البين بالمعنى الأخص بملزومة) [١٤].

إصداره مجله (المنار) :

إلى جانب الاتصال بالشيخ محمد عبده، والتلمذة عليه كان غرض السيد رشد من الانتقال من الشام إلى مصر ما رغب فيه من إنشاء مجلة تحمل الفكر الذي اقتنع به، والنهج الذي أراد نشره والسير عليه، وبالفعل أصدر مجلة تحمل اسم : (المنار) صدر العدد الأول منها فى الثانى والعشرين من شوال سنه ١٣١٥هـ واستمرت فى الصدور حتى الجزء الثانى من المجلد الخامس والثلاثين فى التاسع والعشرين من شهر ربيع الثانى سنه ١٣٥٤هـ [١٥].

ويصدر الشيخ رشيد رضا العدد الأول من " المنار" ويحدد أهدافها فيه فيقول:

(الحث على تربية البنات والبنين، والترغيب فى تحصيل العلوم والفنون، وإصلاح كتب العلم وطريقة التعليم، والتنشيط على مجاراة الأمم المتمدنة فى الأعمال النافعة، وطرق أبواب الكسب والاقتصاد، وشرح الدخائل التى مازجت العقائد للأمة، والأخلاق الرديئة التى شبهت الحق بالباطل حتى صار الجبر توحيدا، وإنكار الأسباب إيمانا، وترك الأعمال المفيدة توكلاً، ومعرفة الحقائق كفرا وإلحادا، وإيذاء المخالف فى المذاهب دينا، والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحا ، واختبال العقل وسفاهة الرأي ولاية وعرفانا، والذل والمهانة تواضعا، والخشوع للظلم والاستسلام للضيم رضا وتسليما، والتقليد الأعمي لكل متقدم علما وإيقانا) [١٦] .

مؤلفات الشيخ رشيد رضا:

كان الشيخ رشيد رحمه الله مع هذا النشاط فى مجال الصحافة من المكثرين فى التأليف، فقد عرفت له مؤلفات كثيرة من بينها- تمثيلا لاحصرا :

١)تاريخ الأستاذ الإمام، وهو أوسع ترجمة للأستاذ الإمام محمد عبده.
٢) الوحي المحمدى ٣)الوحدة الإسلامية .
٤) الخلافة ٥) مناسك الحج.
٦) الربا والمعاملات فى الإسلام.
٧) تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن .
٨) فتاوى السيد رشيد رضا.
٩) ترجمة القرآن .

أما أبرز مؤلفاته التى يقترن ذكره بذكرها فهو: (تفسير القرآن الحكيم) المعروف "بتفسير المنار" [١٧] وهو موضوع البحث، ولذا سنفرده بمزيد من الكلام المفصل.

قصة تأليف " المنار":

إذا أردنا معرفة قصة هذا التفسير، فالأجدى والأدق والأوثق تاريخا أن نترك القلم للشيخ رشيد نفسه ليحدثنا بها، ومثبتين إياها على طولها، لما فيها من الفائدة، ولما للقارئ إليها من حاجة، إذ أنه قد بين فى ثنايا كلامه المنهج العلمي الذي سلكه فى كتابة هذا التفسير إجمالاً، ونبه إلى الطريقة المثلى لقراءته وما فيه من مباحث.

يقول رحمه الله تعالى، وهو يحكي أول لقاء له بالشيخ محمد عبده رحمه الله.

(وكان أول اقتراح لى عليه أن يكتب تفسيرا للقرآن ينفخ فيه من روحه التى وجدنا روحها ونورها فى مقالات "العروة الوثقي" الاجتماعية العامة، فقال: إن القرآن لا يحتاج إلى تفسير كامل من كل وجه، فله تفاسير كثيرة أتقن بعضها ما لم يتقنها بعض، ولكن الحاجة شديدة إلى تفسير بعض الآيات، ولعل العمر لا يتسع لتفسير كامل، فاقترحت عليه أن يقرأ درسا فى التفسير، وكان ذلك فى شعبان سنه ١٣١٥ هـ ثم كررت عليه الاقتراح فى رمضان، وكان يعتذر بما أذكر أهمه هنا.

(زرته يوم الجمعة ١٣ رمضان فقرأ لى عبارة من كتاب فرنسي فى الطعن على الإسلام، وطفق يرد عليها بعد أن قال: إن هؤلاء الإفرنج يأخذون مطاعنهم فى الإسلام من سوء حال المسلمين، مع جهلهم هم بحقيقة الإسلام، قال : إن القرآن نظيف، والإسلام نظيف، وإنما لوثه المسلمون بإعراضهم عن كل ما فى القرآن واشتغالهم بسفساف الأمور، وطفق يتكلم بهذه المناسبة فى تفسير قوله تعالى : (**هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا**)[١٨]. وماذا كان ينبغى للمسلمين أن يكونوا عليه لو اهتدوا بها.

(ثم ذكر أن الطاعن ادعي أن المسلمين لم يعلمهم نبيهم من صفات الخالق إلا أنه حاكم قاهر، وسلطان عظيم، قد أوجب الفتح على أتباعه لأجل قهر الأمم، لا لأجل تربيتها، وقال: فأين هذا من تسمية النصاري خالقهم بالأب الدال على الرأفة والعطف؟ ثم طفق يرد على هذا القول بالكلام على اسم الرب وما فيه من معانى التربية والعطف والتفرقة بينه وبين معنى الأب، وكون طلبه للولد بمقتضى شهوته لا محبته له، وغير ذلك من شئون الوالد التى ينزه الله تعالى عن الاتصاف بها، وأطال فى ذلك، وههنا دار بيني وبينه ما أذكر ملخصه كما كتبته بعد مفارقة ذلك المجلس، وهو : (قلت) : لو كتبت تفسيرا على هذا النحو تقتصر فيه على حاجة العصر، وتترك كل ما هو موجود فى كتب التفسير، وتبين ما أهملوه...

(قال : إن الكتب لا تفيد القلوب العمى، فإن دكان السيد عمر الخشاب مملوءة بالكتب من جميع العلوم، وهى لا تعلم شيئا منها، لا تفيد الكتب إلا إذا صادفت قلوبا متيقظة، عالمة بوجه الحاجة إليها، تسعى فى نشرها، إذا وصل لأيدي هؤلاء العلماء كتاب فيه غير ما يعلمون لا يعقلون

المراد منه، وإذا عقلوا منه شيئا يردونه ولا يقبلونه، وإذا قبلوه حرفوه إلى ما يوافق علمهم ومشربهم، كما جروا عليه فى نصوص الكتاب والسنة التى نريد بيان معناها الصحيح وما تفيده ...) [١٩].

لكن كلام الإمام لم يقنع الشيخ رشيد ويرده عن محاولته معه فى كتابه التفسير، فمضي يراجعه، ويلح على ضرورة مثل هذا التفسير، والشيخ يرد بأن الكلام المسموع أجدى وأكثر أثراً فى النفس، إذ يتيح للسامع أن يسأل المتكلم عما يخفي عليه من كلامه بخلاف القارئ، وكذلك بأنه فى دروسه كان يلقى إلى طلابه بكثير من الأمور التى حقها أن تكتب، فما اهتم أحد بكتابتها، لكن الشيخ رشيد رحمه الله تعالى مازال بشيخه يسوق الحجة تلو الحجة على فائدة التفسير المكتوب، مبينا أن الزمان لا يخلو ممن يقدر كلام الإصلاح قدره، وهؤلاء وإن قل عددهم إلا أنهم فى سبيلهم إلى الكثرة، فتكون الكتابة مرشدا لهم ولمن يأتى بعدهم، ومضي النقاش بين التلميذ وشيخه على هذا النحو حتى اقتنع الشيخ.

يقول الشيخ رشيد رحمه الله تعالى : ولم أزل به حتى أقنعته بقراءة التفسير فى الأزهر، فاقتنع وبدأ الدرس بعد ثلاثة أشهر ونصف، أى فى غرة المحرم سنه ١٣١٧هـ وانتهى منه فى منتصف المحرم سنة ١٣٢٣ هـ عند تفسير قوله تعالى : **(وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً)** من الأية ١٢٦ من سورة النساء، فقرأ زهاء خمسه أجزاء فى ست سنين، إذ توفي لثمان خلون من جمادي الأولى منها رحمه الله تعالى وأثابه.

(كانت طريقته فى قراءة الدرس على مقربة مما ارتاه فى كتابة التفسير، وهو أن يتوسع فيه فيما أغفله أو قصر فيه المفسرون، ويختصر فيما برزوا فيه من مباحث الألفاظ والإعراب ونكت البلاغة، وفى الروايات التى لا تدل عليها ولا تتوقف على فهمها الآيات ويتوكأ فى ذلك على عبارة " تفسير الجلالين" الذي هو أوجز التفاسير، فكان يقرأ عبارته فيقررها، أو ينتقد منها ما يراه منتقدا، ثم يتكلم فى الآية أو الآيات المنزلة فى معنى واحد بما فتح الله عليه مما فيه هداية وعبرة.

(وكنت أكتب فى أثناء إلقاء الدرس مذكرات أودعها ما أراه أهم ما قاله، وأحفظ ما أكتب لأجل أن أبيضه، وأمده بكل ما أتذكره فى وقت الفراغ، ولم ألبث أن اقترح على بعض الراغبين فى الإطلاع عليه من قراء المنار فى البلاد المختلفة، ومن الحريصين على حفظه من الإخوان بمصر أن أنشره فى المنار، فشرعت فى ذلك أول المحرم سنة ١٣١٨هـ وذلك فى المجلد الثالث من المنار، وكنت أولاً أطلع الأستاذ الإمام على ما

أعده للطبع كلما تيسر ذلك بعد جمع حروفه فى المطبعة وقبل طبعه، فكان ربما ينقح فيه بزيادة قليلة أو حذف كلمة أو كلمات، ولا أذكر أنه انتقد شيئا مما لم يره قبل الطبع، بل كان راضيا بالمكتوب، بل معجبا به، على أنه لم يكن كله نقلا عنه ومعزوا إليه، بل كان تفسيرا للكاتب من إنشائه، اقتبس فيه من تلك الدروس العالية جل ما استفاده منها، لذلك كنت أعزو إليه القول المنقول عنه إذا جاء بعده كلام لى فى بيان معنى الآية أو الجملة على الترتيب، فإذا انتهى النقل وشرعت بكلام لى بعده قلت فى بدئه " أقول" ولم يكن هذا التمييز ملتزماً فى أول الأمر ، بل كثر فى الجزء الأول ما لا عزو فيه، ومنه ما هو مشترك بين ما فهمته منه ومن كتب التفسير الأخرى، أو من الآية على أنني عبرت عنه بأمالي مقتبسة.

(ولما كان رحمه الله تعالى يقرأ كل ما أكتبه، إما قبل طبعه وهو الغالب، وإما بعده وهو الأقل، لم أكن أري حرجا فيما أعزوه إليه مما فهمته منه وإن لم أكن كتبته عنه فى مذاكرات الدرس، لأن إقراره إياه يؤكد صحة الفهم وصدق العزو، وبعد أن توفاه الله صرت أرى من الأمانة ألا أعزو إليه إلا ما كتبته عنه ، أو حفظته حفظاً، وصرت أكثر أن أقول: قال ما معناه، أو ما مثاله، أو ما ملخصه، مثلا، على أنني أعتقد أنه لو بقى حيا واطلع عليه لأقره كله.

(وقد بدأت فى حياته بتجريد تفسير الجزء الثانى من المنار وطبعه على حدته، وتوفي قبل طبع نصفه، فهو قد قرأ ما طبع منه مرتين، وقد اشتد شعوري بعد ذلك بأن على وحدي تبعه تأليف تفسير مستقل، وتبعة إيداعه ما تلقيته عن هذا العالم الكبير المشرق البصيرة، وذي النصيب الوافر من إرث نبي الله داود عليه السلام الذي قال الله تعالى فيه : **(وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ)** [٢٠] وتبعة الأمانة فى النقل بالمعنى أثقل من تبعة تحرى الفهم الصحيح، وأدائه ببيان فصيح.

(وسبب البدء بطبع الجزء الثانى: أن الأول كان مختصرا وغير ملتزم فيه ما التزمته فيما بعده من تفسير جميع عبارات الآيات وذكر نصوصها ممزوجة فيه، ولذلك اقترحت على الأستاذ أن يعيد النظر فيه ، ويزيد فيه ما يسنح له من زيادة أو إيضاح، ولا سيما إيضاح ما انتقد عليه إجماله من الكلام فى الملائكة والشياطين، وتأويل قصة آدم، فقرأ النصف الأول منه بعد نسخه له ، وزاد فيه ما يراه القارئ معزوا إلى خطه ومميزا بوضعه بين علامتين بهذا الشكل ( ) وزدت أنا فى جميع الجزء زيادات غير قليلة صار بها موافقا لسائر الأجزاء فى أسلوبه، وكنت

أميز زيادتي الأخيرة عن أقوالي التى أسندتها إلى نفسي أولا فى حال حياة الأستاذ بقولي: وأزيد الآن، أو وأقول الآن، ثم تركت ذلك، واكتفيت بكلمة (أقول).

(هذا وإنني لما استقللت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه – رحمه الله تعالى – بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة، سواء كان تفسيرا لها أو فى حكمها، وفى تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية والمسائل الخلافية بين العلماء، وفى الإكثار من شواهد الآيات فى السور المختلفة، وفى بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها، بما يثبتهم بهداية دينهم فى هذا العصر، أو يقوى حجتهم على خصومه من الكفار والمبتدعة، أو يحل بعض المشكلات التى أعيا حلها بما يطمئن به القلب، وتسكن إليه النفس، وأستحسن للقارئ أن يقرأ الفصول الاستطرادية الطويلة وحدها فى غير الوقت الذي يقرأ فيه التفسير لتدبر القرآن والاهتداء به فى نفسه، وفى النهوض بإصلاح أمته، وتجديد شباب ملته، الذى هو المقصود بالذات منه، وأسأله أن يخصني والأستاذ بدعواته الصالحة[٢١].

القدر الذى تناوله (المنار) من تفسير القرآن الكريم :

ابتدأ الشيخ رشيد رضا رحمه الله تعالى كتابه التفسير على النحو الذى ذكره فى قصة تأليفه: من أول سورة الفاتحة، وانتهى عند قول الله تعالى: (**رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السماوات والارض أنت وليي في الدنيا والاخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين**) [٢٢]، ثم عاجلته المنية قبل أن يتم تفسير القرآن الكريم كله .

وقد أكمل الأستاذ بهجت البيطار تفسير سورة يوسف، وطبع تفسير هذه السورة بتمامها فى كتاب مستقل يحمل اسم الشيخ رشيد رحمه الله تعالى[٢٣].

منهج صاحب المنار فى التفسير

لقد حرص صاحب المنار– شأنه فى ذلك شأن كل المفسرين أوجلهم – على إثبات منهجه من أول الأمر فى تعامله مع تفسير كتاب الله تعالى، وما يتوخاه من هذا التفسير، وما يساعده ويعينه على الوصول إلى غايته تلك من الوسائل، فنراه فى المقدمة يؤكد على أمور إذا تقررت على نحو صحيح سهل معرفة الطريق التى توصل إلى الهدف المأمول من التفسير، من بين هذه الأمور :

(١) الهدف الأسمى والمقصد الأعلى من تفسير كتاب الله تعالى .
(٢) المسالك التى سلكتها التفاسير السابقة – فى مجملها– لتحقيق هذا الهدف.
(٣) مراتب التفسير – كما يراها المؤلف – إجمالا وتفصيلا.
(٤) العلوم التى تساعد على تحقيق الهدف الأسمي من التفسير.
(٥) حجر الزاوية فى البناء السابق كله.

وهذه الأمور يحتاج كل منها إلى نوع من بسط القول :

أولا: الهدف الأسمى من التفسير:

ينطلق صاحب المنار– فى تحديده الهدف الأسمي من التفسير – من حقيقة يجمع عليها أهل العلم، بل ينطق بها القرآن الكريم ذاته، هذه الحقيقة تتمثل فى الغاية من نزول القرآن الكريم، وهى الهداية بمفهومها العام الشامل أخذا من قول الله تعالى: (**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيرا * وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً**) (الاسراء: ٩،١٠).

ويستوقف النظر أن حذف متعلق الهداية فى الآية الأولي فيه إشارة قوية واضحة إلى عموم مخاطبته بتلك الهداية جميع الخلق، وإلى عموم الهداية لشتى مجالات الحياة الدنيا، وصولا بها إلى حسن العاقبة فى الآخرة.

ومن ثم، وبناء على تلك الحقيقة التى لم يذكرها نصا، وإن فهمت من مضمون كلامه يحدد صاحب المنار معالم التفسير الذى يعمل على نشره، فيقول:

(والتفسير الذى نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة، فإن هذا هو

المقصد الأعلى منه، وما وراء هذا من المباحث تابع، وأداة أو وسيلة لتحصيله)[٢٤].

ثانيا: المسالك التى سلكتها التفاسير السابقة لتحقيق هذا الهدف :

لما كانت الحقيقة التى ينطلق منها المفسرون هى ما ذكرنا من إبراز هداية القرآن الكريم، فقد كان ذلك يمثل فى نفس الوقت الهدف المشترك للجميع، ولكن الاختلاف فيما بينهم إنما كان بقدر النجاح فى إبراز تلك الهداية سهلة نقية من كل ما يعطل الاستفادة منها، وهنا يرى صاحب المنار أن مجمل التفاسير السابقة بما حوته من مسائل العلوم المختلفة لم تستطيع أن تعمد إلى الهدف الأسمي من طريق سهل لم تتخلله وعورة مصطلحات تلك العلوم التى تشغل القارئ كثيراً عما يريد، فيرى هذه التفاسير قد سلكت على هذا النحو مسالك شتى، تمثلت فى:

(أ) الاهتمام بأساليب الكتاب الكريم، وما اشتملت عليه من أنواع البلاغة، ليعرف بها علو الكلام وامتيازه على غيره من القول وإن ألم بشئ من المقاصد الأخرى، كما فعل الزمخشري وتبعه فى ذلك آخرون.

(ب) إعراب الكلام مفردا ومركبا، والتوسع فى ذلك حتى أصبح هدفا فى ذاته.

(ج) تتبع القصص، والإغراق فى ذكره وقد دفع الشغف بهذا الأمر إلى الإكثار من النقل من كتب التاريخ ومن الإسرائيليات، والأخذ من كتب أهل الكتاب من غير تفريق بين غث وسمين، ولا تنقيح لما يخالف الشرع ويصادم العقل.

(د) الاهتمام بغريب القرآن اهتماما مفرطا.

(هـ) صرف الهمة، وإفراغ الوسع فى تقرير الأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات والاستنباط منها، حتى جمع بعضهم آيات الأحكام وفسرها وحدها، كما فعل أبو بكر بن العربى وغيره.

(و) تغليب الكلام فى أصول العقائد، ومقارعة الزائغين، ومحاجة المخالفين، كما فعل الفخر الرازي.

(ز) الاهتمام بالمواعظ وما يرقق القلوب، ومزج ذلك – عند من ولع بهذا لأمر – بحكايات المتصوفة والعبّاد.

(ح) خوض مجال ما عرف بالتفسير الإشارى الذى اشتبه فيه على الناس كلام الباطنية بكلام الصوفية.

أشار الشيخ رشيد رضا إلى ذلك كله، ثم علق بقوله :

(وقد عرفت أن الأكثار فى مقصد خاص من هذه المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهي، ويذهب بهم فى مذاهب تنسيهم معناه الحقيقي، لهذا كان الذى نعنى به من التفسير هو ما سبق ذكره، أي من فهم الكتاب من حيث هو دين، وهداية من الله للعالمين، جامعة بين ما يصلح به أمر الناس فى هذه الحياة الدنيا، وما يكونون به سعداء فى الآخرة، ويتبعه بلا ريب: بيان وجوه البلاغة بقدر ما يحتمله المعنى، وتحقيق الإعراب على الوجه الذى يليق بفصاحة القرآن وبلاغته، أى عند الحاجة إلى ذلك، كالمسائل التى عدوها مشكلة، وربما نشير أحيانا إلى الإعراب من غير تصريح بعبارات النحو الاصطلاحية، كما نفعل ذلك فى بعض نكت البلاغة أو قواعد الأصول ...) [٢٥].

ثالثا – مراب التفسير – كما يراها المؤلف – إجمالا وتفصيلا:

من خلال ما سبق نستطيع أن نتبين أن صاحب المنار يرى أن للتفسير مرتبتين : مرتبة دنيا، وهى التى تحقق هدى القرآن بما يوضح إجمالا ما يشرب القلب عظمة الله وتنزيهه ، ويصرف النفس عن الشر ويجذبها إلى الخير، ويرى أن هذه ميسرة لكل أحد، أخذا من قول الله تعالى: **(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)** (القمر:١٧) ونظائرها، ومرتبة عليا: وهى التى تحقق نفس الغاية، ولكن على فهم وعلم ومعرفة تدفع إلى استجلاء جوانب هذه الهداية فى الكون وفى المخلوقات ، وسيرها فى تاريخ البشرية، واطراد سننها فى الخلق ... إلى آخره.

رابعا: العلوم التى تساعد على تحقيق الهدف الأسمي من التفسير:

لقد حكى السيوطى – رحمه الله تعالى – عن أهل العلم : أنه لا ينبغي لأحد أن يتصدى للتفسير إلا إذا كان جامعا للعلوم التى يحتاج إليها المفسر، وعدها فى خمسة عشر علما:

أولها: اللغة ، لأن بها يعرف شرح مفردات الألفاظ، ومدلولاتها بحسب الوضع.

الثانى: النحو ، لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، فلا بد من اعتباره .

الثالث : التصريف، لأنه به تعرف الأبنية والصيغ.

الرابع : الاشتقاق ، لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف المعنى باختلافهما، كالمسيح: هل هو من السياحة أومن المسح ؟

الخامس والسادس والسابع : المعانى والبيان والبديع ، لأنه بالأول يعرف خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، وبالثانى خواصها من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، وبالثالث وجوه تحسين الكلام .

الثامن: علم القراءات : لأن به يعرف كيفية النطق بالقرآن، وبالقراءة يترجح بعض الوجوه المحتمله على بعض .

التاسع : علم أصول الدين .

العاشر : علم أصول الفقه، إذ به يعرف وجه الاستدلال على الأحكام والاستنباط .

الحادي عشر: أسباب النزول والقصص، إذ بسبب النزول يعرف معنى الآية المنزلة فيه بحسب ما أنزلت .

الثانى عشر: الناسخ والمنسوخ، ليعلم المحكم من غيره.

الثالث عشر : الفقه

الرابع عشر : الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم.

الخامس عشر : علم الموهبة، وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم [٢٦]، وإليه الإشارة بحديث: (**من عمل بما علم ورثه الله تعالى علم ما لم يعلم**) [٢٧].

وإذا كان هذا صنيع السيوطي- رحمه الله تعالى – فإن صاحب المنار رحمه الله قد أجمل ما يحتاج إليه المفسر من هذه العلوم فى خمسة : تشمل بعض ما ذكره السيوطي، وتزيد عليها، وتنقص منها، فعدها على النحو التالى _ مبينا أن المرتبة العليا من التفسير لا تتم إلا بها- فقال:

(أحدها : فهم حقائق الألفاظ المفردة التى أودعها القرآن، بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة، غير مكتف بقول فلان وفهم فلان، فإن كثيرا من الألفاظ كانت تستعمل فى زمن التنزيل لمعان، ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد، من ذلك لفظ " التأويل" اشتهر بمعنى التفسير مطلقا، أو على وجه مخصوص، ولكنه جاء فى القرآن بمعان أخرى، كقوله تعالى : (**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ**)(الأعراف: من الآية٥٣ **فما هذا التأويل ؟**) .

يعلق الشيخ رشيد – رحمه الله تعالى فى الحاشية عند هذا التساؤل بقوله: لا أتذكر أن الأستاذ الإمام ذكر معناه عند التمثيل، وهو : العاقبة، وما يعد به – أى القرآن – من المثوبة والعقوبة، أو ما يؤول إليه الأمر فى

وعده ووعيده، ثم يقول مستطرداً فى الصلب بعد هذا التساؤل: يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التى حدثت فى الملة ليفرق بينهما وبين ما ورد فى الكتاب) [٢٨] .

على أن كلام الشيخ فى هذا الصدد لا يعنى – فيما مثل به – أن ذلك هو معنى التأويل فحسب، بل المفهوم من كلامه أن ذلك من معانى التأويل، هو الأنسب، بل المراد فى هذا السياق، وإلا فالتأويل بمعنى التفسير قد ورد فى القرآن الكريم فى يغر موضع، كما أن هناك نوعا من التلازم بين المعنيين، فتفسير الأمر هو فى نفس الوقت بيان لما يؤول إليه فى عاقبته.

(ثانيها: الأساليب، فينبغي أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة، وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته، مع التفطن لنكته ومحاسنه، والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه، نعم إننا لا نتسامى إلى فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال والتمام، ولكن يمكننا فهم ما نهتدى به بقدر الطاقة، ويحتاج فى هذا إلى علم الإعراب وعلم الأساليب " المعانى والبيان" ولكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها وحفظ أحكامها لا يفيد المطلوب)[٢٩].

(ثالثها: علم أحوال البشر، فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب، وبين فيه ما لم يبينه فى غيره، بين فيه كثيرا من أحوال الخلق وطبائعهم، والسنن الإلهية فى البشر، وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسننه فيها، فلابد للناظر فى هذا الكتاب من النظر فى أحوال البشر فى أطوارهم، وأدوارهم، ومناشئ اختلاف أحوالهم، من قوة وضعف، وعز وذل، وعلم وجهل ، وإيمان وكفر، ومن العلم بأحوال العالم الكبير علويه وسفليه، ويحتاج فى هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه)[٣٠].

(رابعها: العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن، فيجب على المفسر القائم بهذه الغرض الكفائي أن يعلم ما كان عليه الناس فى عصر النبوة من العرب وغيرهم، لأن القرآن ينادي بأن الناس كلهم كانوا فى شقاء وضلال، وأن النبى صلى الله عليه وسلم بعث به لهدايتهم وإسعادهم وكيف يفهم المفسر ما قبحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة أو يقرب منها إذا لم يكن عارفاً بأحوالهم وما كانوا عليه؟ هل يكتفي من علماء القرآن دعاة الدين والمناضلين عنه بالتقليد، بأن يقولوا تقليدا لغيرهم: إن الناس كانوا على باطل، وإن القرآن دحض أباطيلهم فى الجملة ؟ كلا) [٣١].

(خامسها: العلم بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وما كانوا عليه من علم وعمل ، وتصرف فى الشئون دينويها وإخرويها)[٣٢].

وبعد عده لهذه العلوم – كما ذكرنا عنه بنوع من الإيجاز – يعلق الشيخ رشيد رضا بقوله:

(فعلم مما ذكرنا أن التفسير قسمان :

(أحدهما: جاف مبعد عن الله وعن كتابه، وهو ما يقصد به حل الألفاظ وإعراب الجمل، وبيان ما ترمى إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية، وهذا لا ينبغي أن يسمى تفسيرا، وإنما هو ضرب من التمرين فى الفنون كالنحو والمعاني وغيرها.

(ثانيهما: وهو التفسير الذي قلنا: إنه يجب على الناس – على أنه فرض كفاية – هو الذي يستجمع تلك الشروط لأجل أن تستعمل لغايتها وهو ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول، وحكمة التشريع فى العقائد والأحكام على الوجه الذي يجذب الأرواح، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة فى الكلام، ليتحقق فيه معنى قوله (هدى ورحمه)[٣٣]. ونحوهما من الأوصاف، فالمقصد الحقيقي وراء كل تلك الشروط، والفنون هو الاهتداء بالقرآن .

(قال الأستاذ الإمام : وهذا هو الغرض الأول الذى أرمي إليه فى قراءة التفسير)[٣٤].

خامسا: حجر الزاوية فى البناء السابق كله:

على أن صاحب المنار – وقد ذكر ما ذكر – لم يفته التنبيه إلى حقيقة ينبغى أن يعيشها كل مسلم، فضلا عن العلماء وطلاب العلم، هذه الحقيقة تتعلق بالقرآن الكريم حفظا وتفسيرا وفهما، ألا وهى أهمية اللغة العربية لتحقيق ما سبق من حفظ القرآن وتفسيره، والحفاظ على تلك اللغة وصد عوادى الإهمال أو التغريب أو العجمة عنها، فيقول رحمه الله تعالى:

(إن القرآن ، هو حجة الله البالغة على دينه الحق فلا بقاء للإسلام إلا بفهم القرآن فهما صحيحا، ولا بقاء لفهمه إلا بحياة اللغة العربية، فإن كان باقيا[٣٥] فى بعض بلاد الأعاجم فإنما بقاؤه بوجود بعض العلماء العارفين من التفسير ما يكفي لرد الشبهات عن القرآن عندهم، وببقاء ثقة العامة بهم وبما يقولونه تقليدا لهم فيه، أو بعدم عروض الشبه لهم من دعاة الأديان الأخرى، مع تأثير الوراثة والتقليد من قبيل ما يسمى فى العلم

الطبيعي: بحركة الاستمرار، ولهذا اتفق علماء الإسلام من العرب والأعاجم على حفظ اللغة العربية ونشرها كما تقدم، وكان العلم والدين فى أوج القوة بحياة اللغة العربية)[٣٦].

ثم يقول : (وإننا نعتقد أن المسلمين ما ضعفوا وزال ما كان لهم من الملك الواسع إلا بإعراضهم عن هداية القرآن، وأنه لا يعود إليهم شئ مما فقدوا من العز والسيادة والكرامة إلا بالرجوع إلى هدايته، والاعتصام بحبله، كما يرون ذلك مبينا فى تفسير الآيات الكريمة الدالة عليه، ولا يتم لهم ذلك إلا بالاتفاق على إحياء لغته)[٣٧].

وما قاله الشيخ رحمه الله تعالى حق لا مريه فيه، لذلك نجد أن أعداء الإسلام الذين يجهدون أنفسهم فى الكيد له ولكتابه يوجهون سهامهم إلى اللغة العربية لتوهين عرا لاستمساك بها عند أهلها، إدراكا منهم بمدى أهميتها فى حفظ هذا الكتاب الكريم، ولا غرو أن يستصرخ شاعر كبير مثل حفاظ إبراهيم رحمه الله تعالى أمته محذرا إياها من التهاون فى أمر لغتها، أو الانخداع بدعاوى التغريب من أعدائها، مبينا ثراء تلك اللغة وسعتها ، ويكفيها شهادة على ذلك أن وسعت هذا الكتاب الكريم، وإذا كانت قد قدرت على تلك الغاية، فهى على ما سواها من الغايات أقدر فيقول متحدثا بلسانها:

وسعت كتاب الله لفظا وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات

تفسير المنار فى الميزان

تبين من خلال عرض معالم منهج تفسير المنار أن صاحبه قد حرص على تحقيق ما رآه أمثل الطرق فى تفسير القرآن الكريم .

فهو – أولا– قد حدد الغاية من التفسير، وهى تجلية هداية القرآن – التى من أجلها نزل – بأيسر وأوضح طريق، و– ثانيا– قد استعرض المسالك التى سلكتها التفاسير السابق لتحقيق تلك الغاية فوجدها إما مستفيضة مطنبة فيما لا ضرورة له، وإما مقصرة فيما تدعو إليه الحاجة، إلا القليل من هذه التفاسير، و– ثالثا– قد رأي للتفسير مراتب عند الاختيار لم يرتض إلا أعلاها، وهى المحققة لما حدده من غاية التفسير، و– رابعا– قد ذكر العلوم التى لابد منها لكي تكون أدوات للمفسر لا يتم له ما يريد بدونها وهو –أخيرا– قد حرص على التنويه بمكانة اللغة العربية ودورها فى مسالة التفسير تعلما، بل فى أمر القرآن كله: حفظا واستبقاءاً.

والمتأمل فى هذا المنهج فى ضوء قواعد النقد العلمي، وما أجمعت عليه الأمة من ثوابت التزمتها، ولم تسوغ إهمالها أو الخروج عليها، يجد أن لهذا التفسير محاسن وميزات لا تنكر ولا تغمط ، كما أن عليه مآخذ وفيه عيوب لا تترك ولا تهمل .

من محاسن هذا المنهج :

أولا– الاهتمام بإبراز بلاغة القرآن باعتبارها السمة الظاهرة لإعجازة:

من ذلك موقفه من قضية لغوية اختلف فيها بعض العلماء، وهى قضية الترادف اللفظي فى القرآن، وكذلك ما عرف بين المفسرين بالأحرف الزائدة .

فمن منطلق حرص صاحب المنار رحمه الله تعالى على ما يبرز إعجاز القرآن، ويعلي من شأن بلاغته، نراه ينتصر للقول بعدم الترادف اللفظي، وأن لكل لفظة فى القرآن الكريم معنى مستقلا بها، و أن الحروف الزائدة ليست كذلك إلا من باب التسمية الإعرابية.

ولعل أبرز الأمثلة على ما نقول هنا هو ما ساقه عند تفسير قول الله تعالى من سورة الفاتحة (**الرحمن الرحيم**):

قال الشيخ رشيد رضا رحمه الله تعالى : (قال الأستاذ الإمام ما تفسيره، وتبعه الصبان على أن الرحمن والرحيم بمعنى واحد، وان الثانى

تأكيد للأول، ومن العجيب أن يصدر مثل هذا القول عن عالم مسلم، وما هى إلا غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها.

(قال : وأنا لا أجيز لمسلم أن يقول فى نفسه أو بلسانه: إن فى القرآن كلمة تغاير أخرى، ثم تأتي لمجرد تأكيد غيرها، بدون أن يكون لها فى نفسها معنى تستقل به، نعم قد يكون فى معنى الكلمة ما يزيد معنى الأخرى تقريراً أو إيضاحاً، ولكن الذى لا أجيزه هو أن يكون معنى الكلمة هو عين معنى الأخرى بدون زيادة، ثم يؤتى بها لمجرد التأكيد لا غير، بحيث تكون من قبيل ما يسمى بالمترادف فى عرف أهل اللغة... وأما ما يسمونه الحرف الزائد الذى يأتى للتأكيد، فهو حرف وضع لذلك ، ومعناه هو التأكيد، وليس معناه معنى الكلمة التى يؤكدها، فالباء فى قوله تعالى: **(وكفي بالله شهيدا)** تؤكد معنى اتصال الكفاية بجانب الله جل شأنه بذاتها ومعناها الذي وضعت له ، ومعنى وصفها بالزيادة أنها كذلك فى الإعراب وكذلك معنى " من" فى قوله : **(وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ)** ونحو ذلك، أما التكرار للتأكيد، أو التقريع، أو التهويل فأمر سائغ فى أبلغ الكلام عندما يظهر ذلك القصد منه، كتكرار جملة: **(فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)** ونحوها عقب ذكر كل نعمة، وهى عند التأمل ليست مكررة، فإن معناها عند ذكر كل نعمة : أفبهذه النعمة تكذبان؟ وهكذا كل ما جاء فى القرآن على هذا النحو)[٣٨].

ثم يبين رحمه الله تعالى ما ذهب إليه الجمهور من تفسير "الرحمن" بأنه المنعم بجلائل النعم، و" الرحيم" بأنه المنعم بدقائقها... إلى آخره، ويمضي بعدها فى بيان ما ارتضاه هو من تفسيرهما من خلال ما قاله الشيخ محمد عبده رحمه الله تعالى، وارتضاه منه، وأقره عليه ، فيقول :

قال الأستاذ الإمام: والذي أقول: إن صيغة: "فعلان" تدل على وصف " فعلى " فيه معنى المبالغة كفعال، وهو فى استعمال اللغة للصفات العارضة: كعطشان وغرثان[٣٨] وغضبان، وأما صيغة فعيل فإنها تدل فى الاستعمال على المعانى الثابتة، كالأخلاق والسجايا فى الناس: كعليم وحكيم وحليم وجميل ، والقرآن لا يخرج عن الأسلوب العربي البليغ فى الحكاية عن صفات الله عز وجل التى تعلو عن مماثلة صفات المخلوقات، فلفظ "الرحمن" يدل على من تصدر عنه آثار الرحمه بالفعل، وهى إفاضة النعم والإحسان، ولفظ " الرحيم" يدل على منشأ هذه الرحمه والإحسان، وعلى أنها من الصفات الثابته الواجبة، وبهذا المعنى لا يستغني بأحد الوصفين عن الأخر ولا يكون الثانى مؤكدا للأول، فإذا سمع العربي وصف الله جل

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة:١٦٤)

كما يكفينا فى النعى على من يهمل عقله، ويعيش أسير الجمود والانغلاق قول الله تعالى : (أفلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (سورة محمد صلى الله عليه وسلم آية:٢٤)

بل إن من أسباب دخول النار، والعذاب فيها عدم الاهتداء بالعقل والانتفاع بأدوات الهداية من الجسد، كما ينطق به قول الله تعالى على لسان الكفار أهل النار : (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) (الملك:١٠)

وهؤلاء الذين قالوا ذلك هم الذين عاشوا فى الدنيا – بسبب إهمالهم للعقل – فى دركة دون البهائم : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (الأعراف:١٧٩) .

لكن ذلك كله لا يعنى – عند أصحاب العقول أنفسهم– أن يتجاوزوا بتلك العقول قدرها، وحدود إمكانها ويقحموها فيما لا مجال للاستقلال بحكم العقول فيه من الحقائق الشرعية .

تلك كانت مقدمة ضرورية حتى لا يسارع البعض إلى رمي من ينادي بحدود للعقل بالمجود والانغلاق وإهدار دعوة جاء بها القرآن الكريم نفسه.

وبعد ... فلقد كان من آثار هذا المبدأ أن وقع صاحب المنار– جريا على سنن أستاذه الإمام – فيما لا ينبغي الوقوع فيه ، وكان ذلك نتيجة لاستبعاد عقلي قاس فيه أموراً مبنية على قدرة الله تعالى إلى القوانين البشرية، فأنكر معجزات ثبتت للأنبياء السابقين، وكذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ثبوتا لا يخالطه ريب، وذلك بتأويل ما جاء فيها من نصوص القرآن والسنة الصحيحة بما يقول به العقل تحكما، وكذلك تأول أموراً أخرى من هذا المنطلق العقلي فيما جاء فى القرآن حول الملائكة وقصة آدم وإبليس والجن وغيرها، كما رد أحاديث صحيحة أو تأولها تأولا باطلا عندما خالفت ما ذهب إليه ، وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل.

أولا: مخالفة جمهور علماء الأمة فى مسألة مسخ المعتدين فى السبت من اليهود قردة، كما جاء فى قول الله تعالى : (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) (البقرة:٦٥)

فقد قال فى تفسير الآية : (والخسوء: هو الطرد والصغار، والأمر للتكوين، أي فكانوا بحسب سنة الله فى طبع الإنسان وأخلاقه كالقردة المستذلة المطرودة من حضرة الناس، والمعنى أن هذا الاعتداء الصريح لحدود هذه الفريضة قد جرأهم على المعاصي والمنكرات بلا خجل ولا حياء حتى صار كرام الناس يحتقرونهم ولا يرونهم أهلا لمجالستهم ومعاملتهم ..) ثم يقول فى نفس السياق: (وذهب الجمهور أيضا إلى أن معنى " كونوا قردة" أن صورهم مسخت فكانوا قردة حقيقين، والآية ليست نصا فيه، ولم يبق إلا النقل، ولو صح لما كان فى الآية عبرة ولا موعظة للعصاة، لأنهم يعلمون بالمشاهدة أن الله لا يمسخ كل عاص فيخرجه عن نوع الإنسان، إذا ليس ذلك من سننه فى خلقه، وإنما العبرة الكبرى فى العلم بأن من سنن الله تعالى فى الذين خلوا من قبل أن من يفسق عن أمر ربه، ويتنكب الصراط الذي شرعه له ينزل عن مرتبة الإنسان ويلتحق بعجماوات الحيوان، وسنة الله تعالى واحدة، فهو يعامل القرون الحاضرة بمثل ما عامل به القرون الخالية)().

وأدنى تدبر وتأمل لما علل به الشيخ لامتناع المسخ من قوله : (لأنهم يعلمون بالمشاهدة ...) الخ يحكم بتهافت هذا التعليل، فما وجه حتمية معاقبة كل عاص لله تعالى بالمسخ قياسا على هذه العقوبة؟! إن الآية ليس فيها تصريح بشمول عقوبة المسخ لكل عاص حتى تهدر مشاهدة خلاف ذلك فى الواقع معنى العظة والعبرة فيها، ثم ألم تتنوع العقوبات فى السابقين فى الدنيا من الجوع والخسف وغير ذلك وكان خزيا لهم فى الدنيا مع عذاب الآخرة، وكان مآلهم النار عبرة لغيرهم.

وأما قوله قبل ذلك : (ولو صح ...) إلى آخره فمفاده أنه يرد الحديث حتى فى حال صحته لأنه عندئذ يتعارض مع فهم ارتآه من الآية قد وضح تهافته، ثم إن تقديم الفهم الخاص على الحديث الصحيح هو من الخطورة بمكان، فضلاً عن تناقضه مع القواعد الشرعية التى اتفقت عليها الأمة سلفا وخلفا مما مفاده أنه إذا صح الحديث وجب المصير إليه .

على أن الحديث فى مسخ جماعة من اليهود قردة وخنازير قد ثبت فى الصحيح فعند مسلم من حديث عبد الله بن مسعود : (**قال رجل يا رسول الله ؛: القردة والخنازير هى مما مسخ؟ فقال النبي صلى الله عليه**

وسلم : " إن الله عز وجل لم يهلك قوماً أو يعذب قوماً، فيعجل لهم نسلا وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك) [٤٧].

ووجه الدلالة فى الحديث إقرار النبى صلى الله عليه وسلم أن الله أهلك هؤلاء المذكورين بالمسخ – فقد ورد فى كتب التفسير أنهم ماتوا بعد ثلاثة أيام لم يأكلوا خلالها أو يشربوا أو ينسلوا [٤٨]– لكن ما نبه إليه أن القردة والخنازير الموجودة الآن ليست من نسل هؤلاء، وأنها كانت قبل ذلك قد خلقت مع سائر الكائنات .

ثانيا: إنكاره إحياء الموتى باعتباره آية للدلالة على البعث، وذلك فى أكثر من موطن فى القرآن الكريم منها:

أ- ما جاء فى قوله تعالى : (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (البقرة:٧٢،٧٣)

فخلاصة سبب أمرهم بذبح البقرة التى وردت بها الآيات قبل ذلك فى قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (البقرة:٦٧) ذكره ابن الجوزى رحمه الله فقال :

(روى ابن سيرين عن عبيدة قال : كان فى بني إسرائيل رجل عقيم لا يولد له ، وله مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله واحتمله ليلاً، فأتى به حياً آخر، فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه حتى تسلحوا وركب بعضهم إلى بعض، فأتوا موسي فذكروا له ذلك، فأمرهم بذبح البقرة)[٤٩].

وإجماع المفسرين قائم على أن البقرة لما ذبحت بعد ذلك الحوار الذى الذي ورد فى السورة، وشدد بنو إسرائيل فيه على أنفسهم فشدد الله عليهم فى مواصفات البقرة، أقول: لما ذبحت أمرهم موسي عليه السلام بضرب القتيل بعضو من أعضائها، فضربوه فقام وأخبر بقاتله ثم مات، فكان ذلك آية لموسى عليه السلام ، وحجة على المعاد.

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى : (فضربوه فحيى ونبه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل ، جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد، وفاصلا ما كان بينهم من الخصومة والعناد)[٥٠].

لكن صاحب المنار جرياً على مذهبه الذي يقوم على تحكيم العقل دون النظر إلى سياق الآية، وتصريحها بما قاله المفسرون، وكون ذلك

آية، ينكر ذلك كله، ويتجه وجهة أخرى فى تفسير الآية، إذ يحكي ما قاله المفسرون، ثم يستبعده مؤولا الآية بتحكم ظاهر، فيقول: (... وقالوا : إنهم ضربوه فعادت إليه الحياة، وقال: قتلني أخي، أو ابن أخي فلان ، إلى آخر ما قالوه، والآية ليست نصا فى مجمله فكيف بتفصيله؟ والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل فى الدماء عند التنازع فى القاتل إذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله، ليعرف الجاني من غيره، فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك فى الشريعة برئ من الدم ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية، ومعنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التى كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف فى قتل تلك النفس، أى يحييها بمثل هذه الأحكام، وهذا الإحياء على حد قوله تعالى : **(ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا)**(المائدة: من الآية٣٢) وقوله : **(ولكم في القصاص حياة)** (البقرة ١٧٩)، فالإحياء هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى فى الآيتين، ثم قال : " ويريكم آياته" بما يفصل بها فى الخصومات، ويزيل من أسباب الفتن والعداوات)[٥١].

ومثل هذا التفسير لم يحمل عليه إلا تحكيم العقل باستبعاد هذا الإحياء فى الدنيا ولذلك تكلف تأويل معنى الآية فى قوله تعالى: **(ويريكم آياته)** كما سبق مما يهدر معنى الآية فى سياقها وهى : العجيبة فى الاستدلال على البعث، فأى ضرورة تلجئ إلى ذلك !

وبنفس الطريقة ينظر صاحب المنار إلى تفسير قول الله تعالى:**(أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه....)**إلى آخر الآية : ٢٥٩من سورة البقرة.

فإن هذه الآية الكريمة تحكي دليلا واقعيا آخر على البعث، فيه مقنع لكل عاقل إلا معاند ، وفى تفسيرها يقول جمال الدين القاسمي رحمه الله تعالى:

(والمعنى: أو لم تر إلى مثل الذي، أو إلى الذى مر على قرية كيف هداه الله تعالى وأخرجه من ظلمة الاشتباه إلى نور العيان والشهود "وهى خاوية على عروشها" خالية ساقطة حيطانها على سقوفها" قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها" أى كيف يعمر الله هذه القرية بعد خرابها، فكان منه كالوقوع في الظلمات، فأراه الله الدليل على الإحياء الحقيقي فى نفسه مبالغة فى قلع الشبهة وإخراجا له منها إلى النور " فأماته الله مئة عام " ليندرس بالكلية" ثم بعثه " أى أحياه ببعث روحه إلى بدنه وبضم أجزائه

إلى بعض بعد تفرقها "قال" الله له كم لبثت " أى مكثت ميتا" قال لبثت يوما أو بعض يوم" قاله بناء على التقريب والتخمين، أو استقصارا لمدة لبثه "قال " الله " بل لبثت مئه عام " وإنما سأله تعالى ليظهر له عجزه عن الإحاطة بشئونه، وأن إحياءه ليس بعد مدة يسيرة، ربما يتوهم أنه هين بالجملة، بل بعد مدة طويلة وينحسم به مادة استبعاده بالمرة، ويطلع فى تضاعيفه على أمر آخر من بدائع آثار قدرته تعالى، وهو إبقاء الغذاء المتسارع إلى الفساد بالطبع على ما كان عليه دهرا طويلا من غير تغير ما) [٥٢].

وهذا المعنى الذى ذهب إليه جمهور المفسرين يخالفه صاحب المنار عندما يجعل هذا اللبث نوعا من النوم أو السبات الطويل من غير أن تفارق الروح البدن، وهو بذلك يخالف سياق الآيات ويهدر ما ترمي إليه من الاستدلال على البعث بهذه الآية العجيبة الظاهرة.

يقول : (قالوا : معناه ألبثه مئة عام ميتا، وذلك أن الموت يكون فى لحظة واحدة) ويوضح الشيخ رشيد ما ذهب إليه بقول شيخه الإمام محمد عبده فى نفس القضية – وهو يسير على نهجه فيها ويقول بمذهبه – فيقول : (قال الأستاذ الإمام وفاتهم أن من الموت ما يمتد زمنا طويلا، وهو مل يكون من فقد الحس والحركة والإدراك من غير أن تفارق الووح البدن بالمرة، وهو ما كان لأهل الكهف، وقد عبر عنه تعالى بالضرب على الآذان) ثم يوضح ما عناه شيخه بقوله : (أقول : ولعل وجهه أن السمع آخر ما يفقد من إدراك من أخذه النوم أو الموت وهذا الموت أو الضرب على الآذان هو المراد بالشق الثانى من قوله تعالى: **(الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى إلى أجل مسمى)** الزمر: من الآية٤٢، والبعث هو الإرسال فإذا هذا النوع من الموت يكون بتوفي النفس أى قبضها، فزواله إنما يكون بإرسالها وبعثها.

(وأقول : قد ثبت فى هذا الزمان أن من الناس من تحفظ حياته زمنا طويلا يكون فيه فاقد الحس والشعور، ويعبرون عن ذلك بالسبات وهو النوم المستغرق الذي سماه الله وفاة)[٥٣].

جـ- نفس هذا المنهج سلكه صاحب المنار فى تفسير قول الله تعالى (**وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز**

حكيم) (البقرة:٢٦٠)

فالجمهور على أن معنى الآية أن الله تعالى طلب من إبراهيم عليه السلام فى مجال إقامة الدليل لقومه على البعث أن يأخذ أربعة من الطير فيذبحهن ويقطعهن ويجعل على رؤوس الجبال من كل منهن جزءا ثم يدعوهن فسوف يحيينهن الله تعالى ويأتينه سعيا [٥٤].

لكن صاحب المنار رحمه الله يأبى هذا التفسير، فنراه يذكر ما قاله الجمهور فى معناها، ثم يورد ما قاله أبو مسلم – المفسر الشهير كما يقول – فيقول : (**ملخص معنى الآية عند الجمهور : أن إبراهيم صلى الله عليه** وسلم طلب من ربه أن يطلعه على كيفية إحياء الموتى، فأمره الله تعالى بأن يأخذ أربعة من الطير فيقطعن أجزاءا يفرقها على عدة جبال هناك ثم يدعوها إليه فتجيئه وقالوا: إنه فعل ذلك ، وخالفهم أبو مسلم المفسر الشهير فقال: ليس فى الكلام ما يدل على أنه فعل ذلك وما كل أمر يقصد به الامتثال، فإن من الخبر ما يأتى بصيغة الأمر لا سيما إذا أريد زيادة البيان، كما إذا سألك سائل كيف يصنع الحبر مثلا؟

فتقول خذ كذا وكذا وافعل به كذا وكذا يكن حبرا، تريد هذه كيفيته، ولا تعنى تكليفه صنع الحبر بالفعل، قال : وفى القرآن كثير من الأمر الذى يراد به الخبر، والكلام ها هنا مثل لإحياء الموتى، ومعناه خذ أربعة من الطير فضمها إليك وآنسها بك حتى تأنس، وتصير بحيث تجيب دعوتك، فإن الطيور من أشد الحيوان استعدادا لذلك، ثم اجعل كل واحد منها على جبل، ثم ادعها فإنها تسرع إليك لا يمنعها تفرق أمكنتها وبعدها من ذلك، كذلك أمر ربك إذا أراد إحياء الموتى يدعوهم بكلمة التكوين (كونوا أحياء) فيكونوا أحياء كما كان شأنه فى بدء الخلق، إذ قال للسموات والأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين)[٥٥].

ثم ساق الشيخ رشيد بعد ذلك ما حكاه الرازي من تفسير أبى مسلم للآية وما أورده على قوله [٥٦] وتكلف من الردود على ما أورده الرازي على قول أبى مسلم ما يوافق رأيه الذي أرتآه فى المسألة، وانتهي إلى التأكيد على ما ذهب إليه بقوله: (آية فهم الرازي وغيره فيها خلاف ما فهمه جميع المفسرين من قبله، ولم يقل أحد إن فهم فئة من الناس حجة على فهم الآخرين، على أن ما فهمه أبو مسلم هو المتبادر من عبارة الآية الكريمة) [٥٧]، وبقوله: (وجملة القول: أن تفسير أبي مسلم للآية هو المتبادر الذى يدل عليه النظم، وهو الذى يجلي الحقيقة فى المسألة)[٥٨].

مسألة فى رأى صاحب المنار فى المعجزات حسية للنبي صلى الله عليه وسلم .

من الثابت عند علماء الأمة بالقرآن والسنة أن الله تعالى قد أيد رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بالعديد من المعجزات الحسية كما أيد بها عددا من الرسل السابقين مثل إبراهيم وموسي وعيسي عليهم السلام .

وإذا كانت المعجزات الحسية مما يشتط الكفار فى طلبه من الرسل تعنتا، فإن المشركين قد طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم آيات أجيبوا إلى بعضها ولم يؤمنوا كما حدث فى معجزة انشقاق القمر .

قال الله تعالى : (**اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر**) (القمر ١-٣).

وعن أنس رضى الله عنه قال : (سأل أهل مكة – أي رسول الله صلى الله عليه وسلم – أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر)[٥٩].

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: (**انشق القمر ونحن مع النبي – صلى الله عليه وسلم – فصار فرقتين، فقال لنا اشهدوا اشهدوا**)[٦٠].

إلا أن الله تبارك وتعالى لم يجب مشركي قريش إلى أكثر ما طلبوا من المعجزات الحسية رحمه بهم أن ينزل بهم العذاب عند تكذيبهم بها كما جاء ذلك فى قوله تعالى(**وما منعنا أن نرسل بالايات إلا أن كذب بها الاولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالايات إلا تخويفا**) (الاسراء:٥٩) .

على أن الأمر لم يقتصر فى الآيات الحسية التى أيد الله تعالى بها رسوله صلى الله عليه وسلم على ما طلبه المشركون، بل كان كثير من هذه الآيات يحدث ابتداءا على مرأي من المؤمنين فيكون ذلك مواساة لهم وتثبيتا لقلوبهم، وتعميقا ليقينهم .

وقد استفاضت الأخبار الصحيحة بالعديد من هذه المعجزات لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كتكثير الطعام بين يديه، ونبع الماء وفورانه من بين أصابعه، حتى يتطهر ويرتوي الجمع الكثير من أصحابه من الماء القليل وكذلك تسبيح الطعام وهو يؤكل أمامه، وحنين الجذع إليه عند انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى منبر صنع له ليخطب الناس عليه وكل ذلك عند البخاري رحمه الله تعالى فى صحيحه، ويمكن الرجوع إليه فى كتاب المناقب، باب علامات النبوة.

لكن الشيخ رشيد رضا رحمه الله تعالى يرى فى الأمر رأيا آخر، مفاده أنه ليس للنبي صلى الله عليه وسلم آية يعتد بها غير القرآن، فنراه عند تفسيره لقول الله تعالى (**وما منعنا أن نرسل بالآيات**) **الآية.**

يقول : (فجملة ما ورد فى اقتراح الآيات الكونية من مجمل ومفصل يفسر بعضه بعضا، وهو مقرر لما علم بالقطع من دين الإسلام أن الله تعالى جعل حجته على رسالة خاتم النبيين هذا القرآن، المشتمل على كثير من الآيات العقلية والعملية والإصلاحية، وأخبار الغيب، وإعجاز الأسلوب والنظم، والتأثير فى الهداية، إلى آخر ما فصلناه فى الفصل الاستطرادي الذي عقدناه لإثبات الوحي فى أول تفسير السورة، وقد آتى الله رسوله خاتم النبيين آيات أخرى عملية وكونية، ولكنه لم يجعلها حجة على رسالته ولا أمره بالتحدى بها، وإنما كانت تكون لضرورات اشتدت حاجة الأمة إليها كاستجابة بعض أدعيته صلى الله عليه وسلم وتقدم بيانه سابقاً.

(ويؤيد هذه القاعدة المأخوذة من هذه الآيات كلها ما رواه الشيخان والترمذي والنسائي من حديث أبى هريرة مرفوعاً: (**ما من نبي من الأنبياء إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**)[٦٢].

ولو وقف الشيخ عند هذا الحد لكان رأيا مقبولا، ولكنه وقد استشعر معارضة بعض نصوص القرآن والسنة لما قال فإنه بادر بالطعن فى الحديث وتأويل الآية تأويلا يتوافق مع ما يراه فقال : (وقد يعارضه – أى حديث: ما من الأنبياء نبي ... آية انشقاق القمر مع ما ورد فى أحاديث الصحيحين وغيرهما من أن قريشا سألوا النبى صلى الله عليه وسلم آية على نبوته فانشق القمر فكان فرقتين، ولكن فى الأحاديث الواردة فى انشقاقه عللاً فى متنها وأسانيدها، وإشكالات علمية وعقلية وتاريخية فصلناها فى المجلد الثلاثين من المنار، وبينا أن ما تدل عليه الآيات القرآنية المؤيدة بحديث الصحيحين الصريح فى حصر معجزة نبوته صلى الله عليه وسلم فى القرآن وكون الآيات المقترحة تقتضي إجابة مقترحيها عذاب الاستئصال هو الحق الذي لا ينهض لمعارضته شئ)[٦٢].

والحق أن لا وجه لما قاله الشيخ فى رده آية انشقاق القمر التى دل عليها صراحة ما فى القرآن والسنة، وإنه لفتح – بغير حق أو أساس – لباب خطر على أحاديث الصحيح لا تؤمن عواقبه.

ثالثا- موقف صاحب المنار من حقيقة الملائكة

من أركان الإيمان التى ورد النص عليها فى القرآن والسنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتى لا يتم إيمان العبد بدونها: الإيمان بالملائكة، فنرى فى القرآن الكريم من شواهد ذلك قول الله تعالى : (**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**) (البقرة:٢٨٥) وقوله تعالى : (**وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالا بَعِيداً**)(النساء: من الآية١٣٦).

وفى السنة قول النبي صلى الله عليه وسلم عندما سأله جبريل عن الإيمان:(**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث**)[٦٣].

وفى رواية مسلم رحمه الله تعالى : (**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**) (٦٤).

ومن مقتضيات الإيمان بالملائكة : الإيمان بما ورد من أوصافهم وأعمالهم فى القرآن الكريم، فمن أوصافهم ما ذكر من أنهم ذوى أجنحة: (**الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) (فاطر:١) .

وكذلك ما ذكر من إمكان ظهورهم فى صورة البشر :(**فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً**) (مريم:١٧) .

وحديث جبريل الذى تمثل فى صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه من الصحابة الجلوس حول النبي صلى الله عليه وسلم أحد، وسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، وقد مر تخرجه منذ قليل .

أما أعمالهم: فمنهم حملة العرش : قال الله تعالى(**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ**)(الحاقة:١٧)، وقال سبحانه (**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ**)(غافر: من الآية٧).

ومنهم كتبة الأعمال : (**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ *كِرَاماً كَاتِبِينَ *يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**) (الانفطار:١٠-١٢) .

ومنهم الموكلون بحفظ العبد : (**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ**)(الرعد: من الآية١١) ومنهم الموكل بالوحي: (**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ *عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ *بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**) (الشعراء:١٩٣- ١٩٥)

ومنهم الموكل بالموت : (**قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**) (السجدة:١١) .

ومنهم خزنة النار وخزنة الجنة: (**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ* قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ* وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**) (الزمر:٧١-٧٣)

على هذا النحو جاء ذكر الملائكة خلقا ووصفا فى القرآن والسنة، وقد مضي سلف هذه الأمة على الإيمان بذلك .

لكن صاحب المنار رحمه الله يذكر عن أستاذه فى شأن الملائكة قولين، أولهما ينسبه إلى السلف فيقول : (أما الملائكة فيقول السلف فيهم : أنهم خلق أخبرنا الله تعالى بوجودهم وببعض عملهم ، فيجب علينا الإيمان بهم ، ولا يتوقف ذلك على معرفة حقيقتهم فنفوض علمها إلى الله تعالى، فإذا ورد أن لهم أجنحة نؤمن بذلك، ولكننا نقول: إنها ليست أجنحة من الريش ونحوه كأجنحة الطيور، إذ لو كانت كذلك لرأيناها وإذا ورد أنهم موكلون بالعوالم الجسمانية كالنبات والبحار، فإننا نستدل بذلك على ان فى الكون عالماً آخر ألطف من هذا العالم المحسوس، وأن له علاقة بنظامه وأحكامه، والعقل لا يحكم باستحالة هذا بل يحكم بإمكانه لذاته ، ويحكم بصدق الوحي الذي أخبر به)[٦٥].

وأما الرأي الثانى فى الملائكة فينقله صاحب المنار كذلك عن شيخه بقوله: (قال الأستاذ: وذهب بعض المفسرين مذهباً آخر فى فهم معنى الملائكة: وهو أن مجموع ما ورد فى الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من إنماء نبات، وخلقة حيوان وحفظ إنسان وغير ذلك فيه إيماء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة، وهو أن هذا النمو فى النبات لم يكن إلا بروح خاص نفخه الله فى البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة وكذلك يقال فى الحيوان والإنسان، فكل أمر كلي قائم بنظام

مخصوص تمت به الحكمة الإلهية فى إيجاده فإنما قوامه بروح إلهي سمي فى لسان الشرع لملكا، ومن لم يبال فى التسمية بالتوقيف يسمى هذه المعانى القوى الطبيعية إذا كان لا يعرف من عالم الإمكان إلا ما هو طبيعة أو قوة يظهر أثرها فى الطبيعية، والأمر الثابت الذى لا نزاع فيه هو أن فى باطن الخلقة أمراً هو مناطها، وبه قوامها ونظامها، لا يمكن لعاقل أن ينكره، وإن أنكر غير المؤمن بالوحي تسميته ملكا وزعم أنه لا دليل على وجود الملائكة أو أنكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوة طبيعية أو ناموساً طبيعياً، لأن هذه الأسماء لا ترد فى الشرع، فالحقيقة واحدة والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات)[٦٦].

ويزيد رأيه إيضاحاً وتأكيداً بقوله : (يشعر كل من فكر فى نفسه ووازن بين خواطره عند ما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير، ووجه للباطل أو للشر، بأن فى نفسه تتازعا كأن الأمر قد عرض فيها على مجلس شوري فهذا يورد وذاك يدافع، واحد يقول: افعل وآخر يقول: لا تفعل، حتى ينتصر أحد الطرفين، ويترجح أحد الخاطرين، فهذا الشئ الذي أودع فى أنفسنا ونسميه قوة وفكراً وهو فى الحقيقة معنى لا يدرك كنهه وروح لا تكتنه حقيقتها ، لا يبعد أن يسميه الله تعال ملكا – أو يسمى أسبابه ملائكة – أو ما شاء من الأسماء، فإن التسمية لا حجر فيها على الناس، فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة والسلطان النافذ والعلم الواسع)[٦٧].

ولا شك أن جعل الملائكة قوى طبيعية مجردة فى وظائفها، أو خواطر باعثة على الخير أو نحو ذلك بحجة عدم المبالاة بالتسمية أمر يخالف ما أجمعت عليه الأمة من جهة، وقبل ذلك تأباه نصوص القرآن والسنة التى تقدم الكثير منها من جهة أخرى.

ولقد حاول الشيخ رشيد رحمه الله أن يبرر صنيع شيخه فى موقفه من الملائكة بأنه ما فعل ذلك إلا محاولة منه إقناع منكري الملائكة بوجودهم على نحو يتلائم مع مألوف ما تقبله عقولهم، فنقل رد الشيخ على منتقد رأيه بقوله: (ولست أحيط علما بما فعلت العادة والتقاليد فى أنفس بعض من يظنون أنهم من المتشددين فى الدين إذا ينفرون من هذه المعانى كما ينفر المرضي أو المخدجون من جيد الأطعمة التى لا تضرهم، وقد يتوقف عليها قوام بنيتهم، ويتشبثون بأوهام مألوفة لهم تشبث أولئك المرضى والمخدجين بأضر طعام يفسد الأجسام ويزيد السقام، لا أعرف ما الذى فهموه من لفظ روح أو ملك، وما الذى يتخيلونه من مفهو لفظ القوة

أليس الروح فى الآدمي مثلا هذا الذى يظهر لنا فى أفراد هذا النوع بالعقل والحس والوجدان والإرادة والعمل، وإذا سلبوه سلبوا ما يسمى بالحياة؟ أو ليست القوة هى ما تصدر عنه الآثار فيمن وهبت له، فإذا سمى الروح لظهور أثره قوة، أو سميت القوة لخفاء حقيقتها روحا فهل يضر ذلك بالدين، أو ينقص معتقده شيئا من اليقين)[٦٨].

ولم يقتصر الشيخ على ذلك، بل أزرى بمن يخالفه رأيه فقال: (أفلا تزعمون أن لله ملائكة فى الأرض وملائكة فى السماء؟ هل عرفت أين تسكن ملائكة الأرض؟ وهل حددت أمكنتها ورسمت مساكنها؟ وهل عرفت أين يجلس من يكون منهم عن يسارك ؟ ومن يكون عن يمينك؟ هل ترى أجسامهم النورانية تضئ لك فى الظلام، أو تؤنسك إذا هجمت عليك الأوهام؟ فلو ركنت إلى أنها قوى أو أرواح منبثة فيما حولك وما بين يديك وما خلفك وأن الله ذكرها لك بما كان يعرفها سلفك، وبالعبارة التى تلقفتها عنهم كي لا يوحشك بما يدهشك، وترك لك النظر فيما تطمئن إليك نفسك من وجوه تعرفها، أفلا يكون ذلك أروح لنفسك، وأدعى إلى طمأنينة عقلك؟ أفلا تكون قد أبصرت شيئا من وراء حجاب ، ووقفت على سر من أسوار الكتاب؟ فإن لم تجد فى نفسك استعدادا لقبول أشعة هذه الحقائق وكنت ممن يؤمن بالغيب، ويفوض فى إدراك الحقيقة ويقول: " آمنا به كل من عند ربنا" فلا ترم طلاب العرفان بالريب ماداموا يصدقون بالكتاب الذى آمنت به ويؤمنون بالرسول الذى صدقت برسالته، وهم فى إيمانهم أعلى منك كعبا وأرضي منك بربهم نفسا)[٦٩].

رابعا- موقف صاحب المنار من قصة آدم وإبليس :

ويتفرع على ما ذكره الشيخ رشيد رحمه الله من نقله ما قاله أستاذه فى شان الملائكة ودفاعه عنه موقفه من قصة آدم وإبليس، وخاصة أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام، ورفض إبليس ذلك، فعند تفسير قول الله تعالى : **(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين)** (البقرة:٣٤) .

نقل عن أستاذه الإمام محمد عبده ما خالف به إجماع العلماء من فهم القصة على حقيقتها، وإجراء آياتها على ظاهرها، وذهابه فى هذا الصدد إلى أن القصة كناية عن خضوع قوى الكون المعبر عنها بالملائكة للإنسان واستثناء قوة الشر المعارضة لذلك.

فيقول : (قال الأستاذ ما معناه : فإذا صح الجري على هذا التفسير، فلا يستبعد أن تكون الإشارة فى الآية إلى أن الله تعالى لما خلق الأرض، ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التى بها قوامها ونظامها وجعل كل صنف من القوى مخصوصا بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه، ولا يتعدى ما حدد له من الأثر الذي خص به، خلق بعد ذلك الإنسان وأعطاه قوى يكون بها مستعدا للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها فى عمارة الارض، وعبر عن تسخير هذه القوى له بالسجود الذى يفيد معنى الخضوع والتسخير، وجعله بهذا الاستعداد الذى لا حد له والتصرف الذى لم يعط لغيره خليفة الله فى أرضه، لأنه أكمل الموجودات فى هذه الأرض، واستثني من هذه القوى قوة واحدة عبر عنها بإبليس وهى القوة التى تعارض فى اتباع الحق وتصد عن عمل الخير وتنازع الإنسان فى صرف قواه إلى المنافع والمصالح التى تتم بها خلافته، فيصل إلى مراتب الكمال الوجودي التى خلق مستعدا للوصول إليها.

(قال : ولو أن نفسا مالت إلى قبول هذا التأويل لم تجد فى الدين ما يمنعها من ذلك والعمدة على اطمئنان القلب هو ركون النفس إلى ما أبصرت من الحق)[٧٠].

وكما فعل الشيخ رشيد فى دفاعه عن شيخه الإمام فى مسالة الملائكة، والتماسه العذر له فيها، فإنه هنا يتبني نفس الموقف فى انحيازه إلى تفسير أستاذه لقصه آدم وإبليس، فيقول رحمه الله تعالى: (ذلك – وإن ترتيب النظم يلتئم مع التأويل الذى أورده الأستاذ الإمام فى السياق، فإن هذه المعانى التى وردت بصيغة الحكاية، وبرزت فى صورة التمثيل جاءت عقب قول الله تعالى : **(هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا)** (البقرة: من الآية٢٩) وبقى شئ واحد لم يصرح به فى الدرس وقد سبقت الإشارة إليه ، وهو أن كل قوة من قوى هذه الأرض، وكل ناموس من نواميس الطبيعة فيها خلق خاضعا للإنسان، وخلق الإنسان مستعدا لتسخيره لمنفعته إلا قوة الإغراء بالشر، وناموس الوسوسة بالإغراء الذى يجذب دائما إلى شر طباع الحيوان، ويعيقه عن بلوغ كما له الإنساني، فالظاهر من الآيات أن الإنسان لا يغلب هذه القوى ولا يخضعها مهما ارتقي وكمل وقصارى ما يصل إليه الكاملون هو الحذر من دسائس الوسوسة والسلامة من سوء عاقبتها بألا يكون لها سلطان على نفس الكامل تجعله مسخرا لها وتستعمله بالشرور)[٧١].

خامسا- موقفه من الجن :

الجن من عالم الغيب ولذلك فإن مصدر ما يدور حولهم إنما هو من القرآن الكريم والسنة، والقرآن الكريم قد أثبت حقيقة الجن ، وأنهم خلق من خلق الله تعالى خلقوا من النار، قال تعالى: **(والجان خلقناه من قبل من نار السموم)** (الحجر:٢٧) وأنهم خلقوا مع الإنس لعبادة الله تعالى، قال الله سبحانه: **(وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأ ولئك تحروا رشدا* وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا)** (الجن:١٤-١٥)، وأنهم يتزوجون قال الله تعالى: **(لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان)**(الرحمن: الآية٧٤) وأنهم يتناسلون قال الله سبحانه: **(أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا)**(الكهف: من الآية٥٠) .

وللإنصاف فإن صاحب المنار قد أثبت الجن وآمن بوجوده ولكنه خالف إجماع العلماء فيما ذهب إليه من عدم إمكان رؤية الجن متمثلا فى صورة مما يتشكل بها، وتأول ما ثبت فى الصحيح من ذلك مما رؤي من الجن الذي كان يسرق طعام الصدقة بأنه نوع من القردة الراقية التى تسمى السعلاة ، أو أن المسألة كلها نوع من التخييل.

وقبل أن نسوق ما قاله الشيخ رشيد رضا فى هذا المقام نذكر أولا ما جاء من الروايات الصحيحة والحسنة فى شأن ظهور الجن فى صورة كائنات تسرق من طعام الصدقة التى كان يوكل بحفظها بعض صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، أو مما يملك البعض الآخر من التمر .

فعن أبى هريرة رضى الله قال: **(وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: والله لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال : إني محتاج، وعلى عيال، ولي حاجة شديدة، قال : فخليت عنه، فأصبحت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ؟ قال : قالت يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا، فرحمته فخليت سبيله قال: أما إنه قد كذبك وسيعود ، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيعود، فرصدته فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : دعني فإني محتاج وعلى عيال، لا أعود، فرحمته فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا هريره ما فعل أسيرك؟ قلت: يارسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله، قال : أما إنه قد كذبك وسيعود، فرصدته الثالثة، فجعل يحثو من الطعام فأخذته**

وقلت: لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا آخر ثلاث مرات، وإنك تزعم لا تعود ثم تعود قال : دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت : ما هن؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي" الله لا إله إلا هو الحي القيوم" حتى تختم الآية فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربنك شيطان حتى تصبح ، فخليت سبيله، فأصبحت فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما فعل أسيرك البارحة؟ قلت يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله، قال: ما هى ؟ قلت: قال لي إذا أويت إلي فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية : " الله لا إله إلا هو الحي القيوم " وقال لى : لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح وكانوا أحرص شئ على الخير، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟ قال: لا ، قال: ذاك شيطان"(٧٢).

وعن أبى أيوب الأنصاري رضى الله عنه أنه كانت له سهوة (٧٣) فيها تمر، فكانت تجئ الغول فتأخذ منه، قال فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فاذهب فإذا رايتها فقل: بسم الله أجيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فأخذها فحلفت ألا تعود فأرسلها، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسمل فقال: ما فعل أسيرك؟ قال : حلفت ألا تعود، فقال: كذبت وهى معاودة للكذب، قال فأخذها مرة أخرى فحلفت أن لا تعود فارسلها، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما فعل أسيرك ؟قال: حلفت أن لا تعود، فقال: كذبت وهى معاودة للكذب ، فأخذها وقال : ما أنا بتاركك حتى أذهب بك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: إنى ذاكرة لك شيئا: آية الكرسي اقرأها فى بيتك فلا يقربك شيطان ولا غيره، قال فجاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ما فعل اسيرك ؟ قال فأخبره بما قالت ، قال : صدقت وهى كذوب (٧٤) ، قال : هذا حديث حسن غريب.

والآن نذكر ما قاله صاحب المنار فى شأن الجن فى سياق تفسيره لقول الله تعالى : **(قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الارض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين)** (الأنعام:٧١) .

قال رحمه الله تعالى: (والظاهر أن بعضهم كان يخيل إليه الخوف فى البراري المنقطعة شيئا يتلون، فيهيم على وجهه خوفا منه لا عتقاده أنه

من الجن، ويحتمل أن يكون بعضهم قد رأي بعض القردة الراقية التى تشبه العجوز القبيحة الوجه فسموها السعلاة، وأن تكون السعلاة التى أكلت من التمر فى حديث أبى أيوب منها إن صح ما روى عنه وكان عن مشاهدة، وإلا كان مبنيا على ما توارثه قبل نفي النبى صلى الله عليه وسلم له ، أو قبل العلم بهذا النفي، وقد قال الله تعالى فى الشيطان : (**إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم)**(الأعراف: من الآية٢٧).

وقال ابن عباس : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير الجن حين استمعوا القرآن منه، بل علم ذلك بالوحي، لقوله تعالى **(قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن)**(الجن: من الآية١)، ولكن فى حديث ابن مسعود وكان معه أنه رأي أسودة تشبه السحاب، وسيأتى تفصيل ذلك فى موضعه، وروى البهقي فى مناقب الشافعي بإسناده عن الربيع: سمعت الشافعى يقول: من زعم أنه يرى الجن أبطلنا شهادته إلا أن يكون نبيا انتهى، وقد حملوه كما حملوا الآية على من يدعى رؤيتهم بصورتهم التى خلقهم الله عليها دون الصور التى يتمثلون بها) قال ذلك الشيخ رشيد رحمه الله تعالى، ثم ذكر بعده فى هامش نفس الصفحة قوله: (ومنه حديث أبى هريرة فيمن كان يسرق تمر الصدقة، وإخبار النبى صلى الله عليه وسلم إياه بأنه شيطان وهو فى البخاري منقطع، ووصله النسائي والإسماعيلي وأبو نعيم، وللطبرانى معناه عن معاذ وقصة أخرى عن أبى اسيد وللنسائي عن أبى بن كعب وأما أثر أبى أيوب فعند الترمذي وقال: حسن غريب ، والصواب أنه ليس فى هذه الروايات كلها حديث صحيح)(٧٥).

والحق أن ما ذكره صاحب المنار من قوله: (والصواب أنه ليس فى هذه الروايات كلها حديث صحيح فيه قدر كبير من المجازفة فحديث أبى هريرة عند البخاري فى حفظ زكاة رمضان حديث صحيح، ولا يضيره روايته من البخاري بلفظ قال، فقد حقق أهل الصنعة فى الحديث وصله من طريق البخاري ومن طريق غيره كما أن ثمة أحاديث آخرى صحيحة تثبت رؤية الجن فيما يتشكلون به من الصور وبيان هذا وذاك فيما يلى:

أولا: أما حديث أبى هريرة عند البخاري فعلي الرغم من أن البخاري أورده فى كتاب الوكالة باب إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئا فأجازه الموكل فهو جائز، حديث ٢٣١١، وفى كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده ، حديث ٣٢٧٥، وفى كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة البقرة حديث ٥٠١٠.

أقول: على الرغم من أن البخاري رحمه الله تعالى أورده فى هذه المواطن الثلاثة مجملا ومفصلا بصيغة واحدة: (وقال عثمان بن الهيثم...) الحديث، ولم يصرح فى واحد منها بالسماع من عثمان إلا أن عثمان بن الهيثم هذا أحد شيوخ البخاري باتفاق العلماء.

ففى السير، قال الذهبي فى ترجمة عثمان بن الهيثم: (حدث عنه البخاري فى صحيحه وهو من كبار شيوخه)[٧٦].

وفى التهذيب ذكر المزى فى ترجمته لعثمان بن الهيثم كذلك : أن البخاري من تلاميذه[٧٧].

وإذا روى التلميذ عن شيخه الذى لقيه وسمع منه بصيغة (قال) فإن ذلك محمول على الاتصال عند جمهور العلماء، مادام قد لقيه وسمع منه ولم يتهم بالتدليس، والبخاري لم يتهمه أحد بالتدليس.

هذا فى استعمال المحدثين عموما فيمن استعمل لفظ (قال) وإن كانت عندهم أقل من (سمعت) و (حدثنى) لكنها تفيد الاتصال على كل حال.

وبالنسبة للبخاري خاصة فإن ما رواه عن شيوخه بلفظ (قال) محمول على الاتصال وليس من قبيل المعلق الذي حذف من أول إسناده راو أو أكثر، يقول العلامة فضيلة الدكتور محمد محمد أبو شهبه رحمه الله تعالى فى ذلك: (وأما ما يذكره البخاري عن شيوخه بصيغة (قال) و (ذكر) فليس من المعلق الذي حذف من مبتدأ إسناده شئ، وإنما هو إسناد متصل وهذا ما عليه جمهور المحدثين، فكل ما رواه عن شيوخه محمول على الاتصال، ومن العلماء المغاربة من ذهب إلى أنه معلق أيضا يذكر للاستشهاد لا للاحتجاج ..) إلى أن يقول (... والصحيح ما قدمناه أولا من أنه إسناد متصل لا انقطاع فيه)[٧٨].

ومع كل ذلك فإن البخاري رحمه الله تعالى لم ينفرد بسماعه من عثمان بن الهيثم، فقد ورد هذا الحديث عند غير البخاري عن جماعة من المحدثين كلهم قد صرحوا فيه بالسماع من عثمان بن الهيثم مما يقطع بصحة الحديث.

من ذلك ما رواه النسائي فى السنن الكبري [٧٩] حيث قال : أخبرنا إبراهيم بن يعقوب قال : حدثنا عثمان بن الهيثم، قال : حدثنا عوف عن محمد عن أبى هريرة قال : (وكلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم...) الحديث.

فرواية النسائي هذه عن شيخه إبراهيم بن يعقوب، قال : حدثنا عثمان بن الهيثم وبقية الإسناد عند النسائي هو نفس إسناد البخاري.

وإبراهيم بن يعقوب شيخ النسائي الذي صرح بالتحديث عن عثمان: ثقة، وثقه النسائي والدراقطنى، وله ترجمة فى تهذيب الكمال : (٢/ ٢٤٤) وفى تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى: (١/ ١٨٢) طبع دائرة المعارف النظامية بالهند، والطبعة الأولى ١٣٢٥هـ، وعنها دار صادر بيروت .

كما أشار ابن حجر فى تغليق التعليق: (٣ / ٢٩٦) دراسة وتحقيق سعيد بن عبد الرحمن موسى القزقي، طبع المكتب الإسلامى إلى رواية أبى الدرداء عبد العزيز بن منيب، قال حدثنا عثمان بن الهيثم وذكر الحديث بطوله.

وعبد العزيز بن منيب له ترجمة فى السير (١٣ / ١٥٠) وقال عنه الذهبى : صدوق .

كما أن البيهقي قد رواه فى دلائل النبوة [٨٠] من طريق محمد بن غالب (تمتام) قال : حدثنا عثمان بن الهيثم، قال حدثنا عوف عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة.

ومحمد بن غالب هذا ثقة له ترجمة فى تذكرة الحفاظ تحت رقم (٦١٤) وفى السير: (١٣/٣٩٠).

وهؤلاء الثقات جميعا: إبراهيم بن يعقوب عند النسائي، وعبد العزيز بن منيب فيما ذكره ابن حجر ومحمد بن غالب عند البيهقى، أقول: هؤلاء الثقات جميعا قد تتابعوا على رواية الحديث، عن عثمان بن الهيثم مصرحين بالسماع مما يقطع بصحة الحديث عند البخاري، وعند هؤلاء جميعا بدون تردد، ومن يتصل بصنعة الحديث يحكم بصحة هذا الحديث بلا ريب.

ثانيا: أما عن الأحاديث الأخرى التى وردت فى رؤية الجن فيما يتشكلون به من الصور فمنها: ما أخرجه مسلم فى صحيحه [٨١] عن أبى السائب مولى هشام بن زهرة، أنه دخل على أبى سعيد الخدرى فى بيته، قال فوجدته يصلى، فجلست أنتظره حتى يقضي صلاته، فسمعت تحريكا فى عراجين فى ناحية البيت، فالتفت فإذا حية، فوثبت لا قتلها، فأشار إلى : أن أجلس ، فجلست، فلما انصرف أشار إلى بيت فى الدار، فقال: أترى هذا البيت؟ فقلت: نعم ، قال كان فيه فتى منا حديث عهد بعرس، قال : فخرجنا مع الرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق، فكان ذلك الفتى

بستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنصاف النهار فيرجع إلى أهله فاستأذنه يوما، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خذ عليك سلاحك، فإنى أخشي عليك قريظة" فأخذ الرجل سلاحه، ثم رجع فإذا امرأته بين البابين قائمة، فأهوى إليها الرمح ليطعنها به، وأصابته غيرة، فقالت له : أكفف عليك رمحك، وادخل البيت حتى تنظر ما الذى أخرجنى، فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش، فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به، ثم خرج فركزه بالدار، فاضطربت عليه، فما يدري أيهما كان أسرع موتا، الحية أم الفتي؟ قال : فجئنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له، وقلنا : ادع الله يحييه لنا، فقال: " استغفروا لصاحبكم" ثم قال : " إن بالمدينة جنا قد أسلموا، فإذا رأيتم منهم شيئا فآذنوه ثلاثة أيام فإن بدالكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان.

ومنها كذلك ما أخرجه البخاري [٨٢] ومسلم [٨٣] واللفظ للبخاري عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أن عفريتا من الجن تفلت البارحة ليقطع على صلاتي، فأمكنني الله منه فأخذته، فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخى سليمان: "رب هب لى ملكا لا ينبغي لأحد من بعدى " فرددته خاسئا).

قال النووي رحمه الله تعالى فى شرح الحديث : (فيه دليل على أن الجن موجودون، وأنهم قد يراهم بعض الآدميين، وأما قول الله تعالى: (**إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم**)(الأعراف: من الآية٢٧) فمحمول على الغالب فلو كانت رؤيتهم محالا لما قال النبى صلى الله عليه وسلم ما قال من رؤيته اياه ، ومن أنه كان يربطة لينظروا كلهم إليه ، ويلعب به ولدان أهل المدينة)[٨٤].

وقال القاضى عياض فى شرح نفس الحديث : (ولو كانت رؤيتهم محالا لما أخبر النبي صلى الله عليه وسمل بما أخبر وأراده حتى تذكر خبر سليمان، وقيل: هذا الحديث دليل على رؤية أصحاب سليمان لهم وليس ببين عندي، إنما دليله قدرة سليمان عليهم وتسخيرهم له، كما نص الله تعالى عليه، وقد قيل: إن رؤيتهم على خلقهم وظهورهم ممتنعة ، لظاهر الآية إلا الأنبياء ومن خرقت له العادة، وإنما يراهم بنو آدم فى صور غير صورهم كما جاء فى الآثار من ذلك)[٨٥].

وقال الشوكانى رحمه الله تعالى عند تفسير قول الله عز وجل : **إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم**) ما نصه: (وقد استدل جماعة من أهل العلم من هذه الآية على أن رؤية الشياطين غير ممكنة، وليس فى

الآية ما يدل على ذلك، وغاية ما فيها أنه يرانا من حيث لا نراه، وليس فيها أنا لا نراه أبدا، فإن انتقاء الرؤية منا له فى وقت رؤيته لنا لا يستلزم انتفاءها مطلقا)[٨٦].

كذلك نزع الشيخ رشيد رضا فى موطن آخر إلى اعتبار أن الميكروبات التى اكتشفت حديثا يمكن أن تكون نوعا من الجن، فنراه عند تفسيره لقول الله تعالى (**الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس**)(البقرة: من الآية٢٧٥) ما نصه: (و المتكلمون يقولون: إن الجن أجسام حية خفية لا ترى، وقد قلنا فى (المنار) غير مرة: أنه يصح أن يقال : إن الأجسام الحية الخفية التى عرفت فى هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة ، وتسمى بالميكروبات يصح أن تكون نوعا من الجن، وقد ثبت أنها علل لأكثر الأمراض)[٨٧].

وأراه هنا قد اعتمد على معنى (الجن) وهو الستر فى هذا التفسير وهو معنى لغوي للكلمة ، وإذا ساغ هذا التفسير لغة إلا أنه مخالف للحقيقة الشرعية فى المراد بالجن .

هذه بعض القضايا التى خالف فيها صاحب المنار إجماع العلماء إضافة إلى مواقف مشابهة وقفها رحمه الله تعالى من قضايا مهمة كالسحر وبعض مسائل الفقه كالتيمم وحكم الربا وغير ذلك مما لا يتسع له مقام البحث ، ويمكن الرجوع إليها فى مظانها من تفسير المنار.

نتـــــائج البحـــــث

****

الحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين سيدنا محمد وعلى آله صحبه أجمعين .

وبعـــد

ففى نهاية التطواف فى موضوع البحث : عرضاً ودراسة وتحليلاً نستطيع أن نتبين ما يلى :

أولا: أن (تفسير القرآن الحكيم) المعروف بتفسير المنار يعتـبر أبرز آثار المدرسة الأدبية العقلية الاجتماعية فى التفسير، تلـك المدرسـة التى أسسها وتبوأ موقع الريادة فيها الأستاذ الإمام محمد عبده رحمـه الله تعالى .

ثانيا: أن هذا التفسير إذا كان فى واقع الأمر ثمار غرس غرسـه الأستاذ الإمام، فإن الذى تعهد هذا الغرس تحملاً وإداء حتى آتى تلك الثمار هو الشيخ محمد رشيد رضا تلميذه الوفي الأمين على فكـره وآرائـه وإن كانت له شخصيته الواضحة فى تناوله لقضايا التفسير ومسـائله بجـانب شخصية أستاذه وشيخه.

ثالثا: مرت رحلة الشيخ محمد عبده فى حياته بمحطات هامة، كان أبرزها حفظه القرآن الكريم فى سن مبكرة وذهابه إلى الجامع الأحمدي فى طنطا سنة ١٢٧٩هـ لتعلم التجويد الذي أتقنه فى عامين ثم رحيلـه إلـى الأزهر وتتلمذه على عدد من الشيوخ فى مجالات العلم المختلفة ، وكـان أبرز من تتلمذ عليه بعد ذلك فى مجال الدعوة السيد جمال الدين الأفغـاني الذى امتدت صحبته له فى مصر وفى خارجها، وأثمرت تلـك الصحبـة إصدار مجلة العروة الوثقي فى باريس سنه ١٨٨٣.

رابعا: أما تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا فهو ابن قرية (قلمـون) إحدى قرى جنوب لبنان على شاطى البحر الأبيض المتوسط الذى حفـظ القرآن الكريم فى سن مبكرة، ثم التحق بالمدرسـة الوطنيـة الإسـلامية بطرابلس الشام، وتأثر كثيرا بابرز شيوخها، وهو الشيخ حسـين الجسـر وفى مجال الكتب تاثر الشيخ رشيد مبكراً بكتاب إحياء علوم الدين لأبـي حامد الغزالى، ثم وقعت فى يديه بعض أعداد من مجلة (العروة الوثقـى) فكأنه وجد فيها ضالته فأجمع أمره على لقاء السيد جمال الدين الأفغـانى لكن حال دون ذلك وجود الأفغانى فى الآستانة، ولما توفي جمـال الديـن عزم الشيخ رشيد على الاتصال بخليفته الشيخ محمد عبده.

وبالفعل وافاه فى مصر سنه ١٣١٥ هـ وكانت بينهما من ذلـك الحين صحبة توثقت عراها حتى أثمرت هذه التفسير موضوع البحث الذى كان فى واقع الأمر نتيجة إلحاح التلميذ على شيخه أن يلقى دروسـاً فـى التفسير وتم ذلك بالفعل بعد محاولات، واستمرت هذه الدروس التى كـانت مادة فعلية لتفسير المنار.

خامسا: لقد سلك الشيخ رشيد رحمه الله تعالى فى تفسيره مسـلكاً قام على ركائز تمثلت فى : تحرير الهدف الأسمي من التفسـير، وبيـان مراتب التفسير، ونقد المسالك التى سلكها المفسـرون السـابقون، وبيـان العلوم التى تساعد على تحقيق الهدف الأمثل من التفسير، ثم التأكيد علـى الاهتمام باللغة العربية باعتبارها حجر الزاوية فى هذا البناء كله.

سادسا: كشأن كل عمل بشرى، فإن تفسير المنار فيه ما يحمد لـه وفيه كذلك ما يؤخذ عليه، فمن أهم ما يحمد له اهتمامـه بـإبراز بلاغـة القرآن الكريم باعتبارها السمة الظاهرة لإعجازه، وكذلك عدم انسياقه وراء الإسرائيليات والأكاذيب التى زخرت بها بعض كتب التفسير، ووقوفه منها موقف النقد، وحملته عليها بشدة فى بعض المواقف، كما أن هذا التفسير لم يشأ الخوض فى تعيين ما أبهمه القرآن ولم تدل عليه أو ترد فـى تعيينـه روايات صحيحة، كما ابتعد التفسير كذلك عن الإكثار مـن اصطلاحـات العلوم والفنون التى زج بها فى كتب التفسير كمسـائل النحـو والبلاغـة واصطلاحات الفقه، ومباحث الغريب ونحوها، كما أنه تضمـن مبـاحث مفيدة كثيراً ما أوردها صاحب المنار مستقلة، وإن كان منطلقـها الآيـات التى يفسرها، وقد عنيت تلك المباحث بشرح سنن الله تعالى فـى الكـون والاجتماع والتاريخ، وأمور البشر ، وأحوال الأمم ولعل تلك السمة أبـرز ما فى هذا التفسير بحيث تتبادر إلى الذهن كلما ذكر تفسير المنار.

أما ما يؤخذ على هذا التفسير فأخطره: تحكيم العقل المجرد عـن النص وغير المقيد بأى قيد فى قضايا التفسير وموضوعاته، وكـان مـن نتيجة ذلك أن سلك صاحبه به مسلكاً فى كثير من الأمـور خـالف فيـها الإجماع ، وتأول بطريق غير صحيح كثيراً من النصوص عندما لم تتوافق مع الفكر العالم للمؤلف أو القناعة العقلية التى ينطلق منها، وقد برز ذلـك تمثيلا لا حصرا فى :

موقفه من المعجزات عامة، ومعجزات النبي صلى الله عليه وسلم خاصة.

وكذلك موقفه من حقيقة الملائكة ومن قصة آدم وإبليس، ومن الجن وغير ذلك مما ورد بيانه والتعقيب عليه فى ثنايا البحث.

سابعا: ومع كل ما سبق فإن تفسير المنار يعتبر موسوعة أدبية فكرية لا يستهان بها، ولقد ترك هذا التفسير آثاراً شتى تلقاها الناس ما بين مؤيد لما جاء فيه مستحسن وما بين ناقد لكثير من قضاياه متحفظ، وذلك شأن الأعمال الكبيرة التى تجد كل العقول فيها ما يستحق التأمل والتدبر.

وأخيراً فمما لا ينكر لصاحب هذا التفسير دفاعه عن الإسلام والقرآن وإن اختلفت الوجهات والوسائل ، ورده لما يثيره الأعداء من الشبهات، وتلك مزية له لا تغمط، وأما ما فيه مما اختلفنا مع صاحبه حوله احتكاماً إلى الثوابت الشرعية فإن عمل البشر كائنا من كان لا يسلم من المآخذ، وكل يؤخذ من قوله ويرد عليه إلى المعصوم صلى الله عليه وسلم وسبحان من تفرد بالكمال، وتقدس بالجلال.

وآخر دعوانا أن الحمد الله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الهـــوامش

١) صحيح مسلم : ك/ صلاة المسافرين وقصرها. ب/ فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه. ح/ ٨١٧ .

٢) راجع كتاب : (محمد عبده) ص ٦٩ وما بعدها، تأليف عباس العقاد سلسلة أعلام العرب، العدد الأول، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر.

٣) صحيح مسلم: ك/الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، ب/ فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ح/ ٢٦٩٩.

٤) راجع كتاب : (الإمام محمد عبده بين المنهج الدينى والمنهج الاجتماعى) ص ٢٧ وما بعدها تأليف : د/ عبد الله محمود شحاته – الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع الصحافة سنه ٢٠٠٠.

٥) راجع: المصدر السابق ، ص٣١ ، ٣٢ وراجع كذلك كتاب (محمد عبده) للعقاد : ٨٦ ، ٨٧.

٦) راجع : الإمام محمد عبده بين المنهج الديني والمنهج الاجتماعى: ص٥٢.

٧) التفسير والمفسرون (٢/ ٥٥٢) د. محمد حسين الذهبى، دار الكتب الحديثة ، الطبعة الثانية ١٣٩٦ هـ – ١٩٧٦م.

٨) تفسير القرآن الحكيم المسمي (تفسير المنار) ١/ ١٣ محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م.

٩) التفسير والمفسرون (٢/ ٥٥٣).

١٠) راجع: اتجاهات التفسير فى القرن الرابع عشر : (٢/ ٨٠٣) د/ فهد ابن عبد الرحمن الرومي، طبع بإذن رئاسة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالسعودية، ط أولى ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٦م.

١١) راجع : النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين: ٢/ ٣٥ ، ٣٦، د / محمد رجب البيومي ، طبع مجمع البحوث الإسلامية ١٤٠٠هـ– ١٩٨٠م.

١٢) تفسير لامنار : (١/ ١١)

١٣) النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين: (٣٧/٢).

١٤) تفسير المنار: (١١/١، ١٢)

١٥) اتجاهات التفسير فى القرن الرابع عشر : (٨٠٤/٢).

١٦) النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين : (٤٢،٤١/٢).

١٧) اتجاهات التفسير التفسير فى القرن الرابع عشر: (٨٠٥/٢) .
١٨) بعض الآية ٢٩ من سورة البقرة .
١٩) تفسير المنار : (١٣،١٢/١).
٢٠) بعض الآية ٢٠ من سور (ص).
٢١) تفسير المنار : (١/ ١٤- ١٦) .
٢٢) سورة يوسف : آية ١٠١ .
٢٣) التفسير والمفسرون : (٥٧٧/٢).
٢٤) تفسير المنار: (١٧/١) .
٢٥) تفسير المنار: (١٨/١).
٢٦) راجع فى ذلك : (الإتقان فى علوم القرآن) لجلال الدين السيوطي : النوع الثامن والسبعون فى معرفة شروط المفسر وآدبه: (١٢٠٩/٢ - ١٢١٢) دار ابن كثير للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م تقديم وتعليق د/ مصطفى ديب ألبغا.
٢٧) ذكر العجلونى فى " كشف الخفاء": (٢٦٥/٢) دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٣٥٢هـ، ذكر أن الحديث رواه أو نعيم عن أنس .
٢٨) تفسير المنار: (٢٠،١٩/١) .
٢٩) نفس المصدر : (٢٠/١) .
٣٠) تفسير المنار : (٢١/١).
٣١) نفس المصدر : (٢١/١).
٣٢) نفس المصدر: (٢١/١) .
٣٣) بعض الآية ٥٧ من سورة يونس .
٣٤) تفسير المنار: (١/ ٢٢).
٣٥) يعنى بذلك القرآن الكريم .
٣٦) تفسير المنار: (٢٥،٢٤/١).
٣٧) نفس المصدر: (٢٦/١).
٣٨) تفسير المنار : (٣٨/١، ٣٩).
٣٩) الغرثان هو الجوعان : ومنه قول حسان بن ثابت رضى الله عنه يثنى على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، ويعتذر إليها: حصان رزان ما تزن بريبة... وتصبح غرثى من لحوم الغرافل.
٤٠) تفسير المنار: (٣٨/١ - ٤٠) .

٤١) هذا القول ساقة ابن جرير الطبري فى تفسير الآية قال:(حدثنا القاسم، قال : حدثنا الحسين ، قال حدثنى حجاج عن ابن جريج، قال: لما سحق فألقي فى اليم استقبلوا جرية الماء، فشربوا حتى ملئوا بطونهم فأورث ذلك من فعله منهم جبنا) الجامع لأحكام القرآن : (١/ ٤٢٣) دار لفكر- بيروت ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨م.
٤٢) تفسير المنار / (١/ ٣٢٠ ، ٣٢١).
٤٣) يعنى القرية لاتى سكنها أولئك المعتدون.
٤٤) تفسير المنار : (١/ ٢٨٥).
٤٥) راجع : التفسير والمفسرون : (٥٤٩/٢).
٤٦) تفسير المنار : (١/ ٢٨٥).
٤٧) صحيح مسلم " كتاب القدر ، باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر ح / ٢٦٦٣.
٤٨) راجع: ابن جرير الطبري: فى جامع البيان : (١/ ٣٣٠) طبعة دار الفكر – ١٤٠٨هـ.
٤٩) زاد المسير فى علم التفسير : (٩٦/١) طبع المكتب الإسلامى، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ.
٥٠) تفسير القرآن العظيم : (١١٢/١) طبع دار المعرفة – بيروت – ١٤٠٣هـ.
٥١) تفسير المنار : (١/ ٢٩١).
٥٢) محاسن التأويل : (١/ ٦٠٤ ، ٦٠٥) طبع مؤسسة التاريخ العربى، بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
٥٣) تفسير المنار: (٤٢/٣).
٥٤) راجع فيما ذهب إليه الجمهور فى تفسير الآية تفسير القرطبى (٣٠١/٣) طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فتح القدير لمحمد بن على الشوكانى (٣٥٨،٣٥٧/١) دار الوفاء الطبعة الأولى ،١٤١٥هـ روح المعانى لشهاب الدين الألوسي : (٣/ ٢٩) دار إحياء التراث العربى دون تاريخ .
٥٥) تفسير المنار : (٣/ ٤٧) .
٥٦) راجع فى ذلك تفسير الفخر الرازي : مجلد ٤ (٧/ ٤٥ ، ٤٦) طبع دار الفكر – بيروت – الطبع الثالثة ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م.
٥٧) تفسير المنار : (٣/ ٤٨) .
٥٨) نفس المصدر : (٣ / ٤٩) .

٥٩) الحديث أخرجه البخاري فى صحيحه: ك / التفسير ، ب/ (وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا) ح / ٤٨٦٧.

٦٠) الحديث أخرجه البخاري فى صحيحه: ك / التفسير ، ب/ وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا) ح / ٤٨٦٥.

٦١) تفسير المنار : (١١/ ٢٧٢) والحديث أخرجه البخاري فى صحيحه ك/ فضائل القرآن ، ب / كيف نزل الوحي وأول مال نزل بلفظ " ما من الأنبياء نبي إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر" الحديث.

٦٢) تفسير المنار : (١١/ ٢٧٢، ٢٧٣).

٦٣) صحيح البخاري: ك / الإيمان ، ب / سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، ح / ٥٠.

٦٤) صحيح مسلم : ك / الإيمان ، ب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ، ح / ٨.

٦٥) تفسير المصدر: (١/ ٢١٢) .

٦٦) نفس المصدر : (١/ ٢٢٣).

٦٧) نفس المصدر: (١/ ٢٢٣، ٢٢٤).

٦٨) تفسير المنار: (١/ ٢٢٥).

٦٩) نفس الصدر: (١/ ٢٢٦، ٢٢٧) .

٧٠) تفسير المنار : (١/ ٢٢٤).

٧١) تفسير المنار : (٢٢٨/١).

٧٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه : ك / الوكالة ، ب / إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئا فأجازة الموكل فهو جائز" ح / ٢٣١١.

٧٣) هى بيت صغير منحدر فى الأرض شبيه بالخزانة يكون فيها المتاع .

٧٤) سنن الترمذي : ك / فضائل القرآن، ب / ما جاء فى فضل سورة البقرة وآية الكرسي (ب: ٣) ح / ٢٨٨.

٧٥) تفسير المنار : (٤٣٨/٧).

٧٦) سير أعلام النبلاء للحافظ أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: (١٠/ ٢٠٩)الترجمة رقم : (٤٩) طبع مؤسسة الرسالة ١٤٠٢هـ.

٧٧) تهذيب الكمال فى أسماء الرجال للحافظ أبى حجاج المزى : (١٩ / ٥٠٣) طبع مؤسسة الرسالة ، ط : ٥ ، سنة ١٤١٣هـ.

٧٨) الوسيط فى علوم مصطلح الحديث : ص ٢٥٤ ، د. محمد بن محمد ابو شهبة ، طبع دار الفكر العربى ، بدون تاريخ .

٧٩) السنن الكبرى لأبى عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي: ك / عمل اليوم والليلة ، ب/ ذكر مايكب العفريت ويطفئ شعاعه (٢٣٨/٦) ط: ١ درا الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١١هـ.

٨٠) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة لأبى بكر البيهقي : ب / ما جاء فى الشيطان الذي أخذ من الزكاة وما فى آية الكرسي من الحرز : (١٠٧/٧) تحقيق ج. عبد المعطى قلعجي، درا الكتب العلمية، ط: ١ ، ١٤٠٥هـ:

٨١) ك / السلام ، ب / قتل الحيات وغيرها، ح ٢٢٣٦.

٨٢) فى صحيحه : ك / أحاديث الأنبياء ، ب / قول الله تعالى : " ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب " ح / ٣٤٢٣.

٨٣) فى صحيحة :ك / المساجد ومواضع الصلاة فيها، ب / جواز لعن الشيطان فى أثناء الصلاة، والتعوذ منه، وجواز العمل القليل فى الصلاة، ح / ٥٤١.

٨٤) صحيح مسلم بشرح النووى : (٥/ ٢٩) طبع المطبعة المصرية، بدون تاريخ.

٨٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض بن موسى اليحصبى : (٢/ ٤٧٣) تحقيق د/ يحيى إسماعيل ، طبع دار الوفاء ، ط : ١ سنة ١٩٩٨م.

٨٦) فتح القدير لمحمد بن على الشوكانى: (٢/ ٢٠٥) تحقيق د/ عبد الرحمن عميرة ، دار الوفاء ط : ١ سنه ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م.

٨٧) تفسير المنار : (٨٠/٣ ، ٨١).